AL-MUBARAK

AL-UMMAH

2272
.6617
.393

2272.6617.393
al-Mubarak
al-Ummah

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 079639793

المجتمع العربي
١

الأمّة

والعوامل المكونة لها

محمد المبارك

دار الفكر بدمشق

al-Mubārak, Muḥammad

المجتمع العربي

١

al-Ummah

الأمّة

والعوامل المكونة لها

محمد المبارك

دار الفكر بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله وصلاة وسلاماً على النبي العربي المبعوث رحمة للعالمين

تمهيد

إن بحث العوامل المكونة للامة وتحديد مفهوم الأمة والقومية والشعب من الأبحاث التي يعنى بها كل مثقف كما يعنى بها المهتمون بالدراسات الاجتماعية . وهو موضوع اهتمام خاص لدى الباحثين في المجتمع العربي ومحل تفكير أبناء البلاد العربية لما ينتج عن الأخذ باحدى وجهات النظر المختلفة من نتائج هامة في مجال التربية والتعليم والثقافة والتفكير وفي ميادين السياسة والعمل الاجتماعي . ولذلك كان هذا البحث من الموضوعات التي تدرس في كثير من الكليات في الجامعات العربية .

وقد وضع هذا البحث في اطاره العام في منهاج علم الاجتماع في كلية الشريعة في جامعة دمشق منذ السنين الأولى من إنشائها كما

4-2-65 1945

2272
.6617
.393

وضعت مادة المجتمع العربي بعد ذلك في منهاج السنة الأولى من الكلية .

وقد رأيت أن من الضروري إبراز هذا الموضوع وعرضه عرضاً مفصلاً بعض التفصيل يستند إلى مسلمات علم الاجتماع ومعالجته في ضوء نظرياته معالجة موضوعية بعيدة عن العواطف والرغبات مهما تكن تلك العواطف طيبة والرغبات صالحة .

فقد تدفع بعض الناس رغبة خاصة في إقصاء عنصر الدين عن القومية مثلاً إلى تقرير هذه الرغبة على أنها حقيقة واقعة ، يذهبون سلفاً إلى تقريرها والبحث عن الأدلة التي تؤيدها .

وقد تدفع الحماسة للعقيدة الدينية لدى فريق آخر إلى الاعتقاد سلفاً بأن الدين بوجه عام أيا كان ذلك الدين هو أساس تكوين المجتمعات والرابطة الأساسية التي تربط بين أفرادها فيقيمون أملهم المنتظر وهدفهم المثالي المنشود في تكوين مجتمع إنساني رابطته العقيدة الدينية مثلاً مقام الحقيقة الواقعة وشتان في الحالين بين الرغبات الانسانية أو الأهداف المثالية والحقائق الواقعة سواء أكانت هذه الحقائق حسنة مرغوبة أم سيئة مستنكرة .

وهذا ماحدث بالفعل للباحثين في المجتمع العربي وكثيراً ما دار الجدل بين فريقين يمثلان هاتين النظرتين .

فان فريقاً من أبناء المجتمع العربي لهم فكرة سابقة ورغبة خاصة في إقصاء الدين بوجه عام والاسلام بوجه خاص عن المجتمع العربي سواء في تكوينه التاريخي أو في تخطيطه للمستقبل وقد تكون هذه الفكرة ناشئة عن مفاهيم خاطئة عن الاسلام أو تاريخ العرب أو أن تكون لتلك الرغبة بواعث شخصية أو عصبية خاصة تدفع صاحبها لأن يتمنى ويريد أن لايكون الاسلام أساساً للمجتمع العربي في الحاضر وقد تدفعه إلى الادعاء أن ليس الاسلام عنصراً أساسياً في المجتمع العربي حتى في الماضي بل قد يعصف به هوى جامح ومنطق مجنون إلى الادعاء أن العهد الجاهلي في تاريخ العرب أفضل وأرقى من العهد الاسلامي .

ففرق كبير بين الرغبة في أن يكون المجتمع على صورة من الصور التي يراها بعض الناس مثالية وبين واقع المجتمع . على أن تلك الرغبة قد تكون لها دوافع شخصية أو تكون ناشئة عن مصلحة فرد أو جماعة خاصين دون غيرهم ولا تكون مجردة ولا واقعية ولا تكون

كذلك مثالية فتكوين الأمم والقوميات وعوامل تكوينها وتطورها لاتخضع لهذه الرغبات والأماني ولا تخضع لرأي الباحث في ميله الشخصي لترجيح أحد العوامل أو إقصائه سواء أكان ذلك الميل ناشئاً عن رغبة شخصية أو منفعة أو عن فكرة خاصة يعتقد بها وكثيراً ما تلتبس الرغبات الشخصية بالحقائق الواقعة فيقيم الانسان رغبته أو مثاليته مقام الحقيقة فيقررها على أنها واقع ويمضي في إقامة الأدلة على اثباتها . وهذا ماحدث لدى بعض الباحثين في المجتمع العربي .

وهناك أمر آخر كان سبباً في الوقوع في الخطأ في بحث عوامل تكوين الأمة العربية عند الباحثين في هذا الموضوع . ذلك إهمال النظرة التطورية في العوامل المكونة للأمة فان هذه العوامل نفسها في تطور ونصيب كل منها في تكوين الأمة يختلف باختلاف مراحل التطور. فليست هذه العوامل نفسها ثابتة مستقرة في مدى تأثيرها . فقد يكون تأثير الأرض أو الجنس(العرق) في طور من أطوار نشوء الأمة أو المجتمع القومي قوياً عميقاً ولا يكون كذلك دائماً .

ولعلنا سلكنا فيما كتبناه في هذا البحث طريقاً جديداً في تحليل

بعض العوامل الاجتماعية كالتاريخ واللغة والثقافة وارجاعها الى العناصر التي تتألف منها وتختفي وراءها . ذلك أن عدم التعمق في تحليل مضامينها أوقع كثيراً من الباحثين في رأينا في الخطأ والسطحية . وكذلك الحال في عنصر الدين فان مايدخل تحت هذا الاسم وينطوي تحت هـذا العنوان مختلف متنوع من الوجهة الاجتماعية . فالدين قد يكون مجموع شعائر (طقوس) وعبادات وليس فيه إلا عدد بسيط من المعتقدات والأفكار وقد يكون مشتملاً على نظرات عامة للوجود وعلى فلسفة في الحياة وقد يكون مشتملاً على أنظمة اجتماعية. ولا يكون تأثيره الاجتماعي في هـذه الأحوال واحداً وقد تشاركه بعض المذاهب الاعتقادية غير الدينية في تأثيره الاجتماعي دون أن تكون أديانا . ومن هنا يتبين أن كلمة (الدين) قد تخفي وراءها مفاهيم مختلفة وتصنيفات متنوعة وليس أثرها في القوميات والامم وتكوينها واحداً باعتبارها عوامل مؤثرة في هذا التكوين ولا يمكن حينئذ إطلاق حكم واحد عليها ذلك ان المفهوم العرفي واللغوي لكلمة دين يقابله مفاهيم مختلفة من الوجهة الاجتماعية .

وهذا البحث الذي أقدمه جزء من مجموع أبحاث تدور حول

الامة والقومية والانسانية وما بينها من علاقات وما يسير نحوه التطور البشري في هذا المجال من وجهة النظر الواقعية الموضوعية (التاريخية الاجتماعية) ومن وجهة النظر المثالية الخلقية من ناحية أخرى وتطبيق ذلك على الصعيد العربي مما يكشف العلاقة بين العروبة والانسانية، والصلة بين العروبة والاسلام. تلك الصلة التي يحاول فصمها أو تجاهلها أو تشويهها بعض من كتبوا في هذا الموضوع لاسباب خارجة عن نطاق البحث العلمي في كثير من الاحيان، سواء أكانت أهواء شخصية أو أفكاراً سابقة أو عصبيات خاصة أو انسياقاً وراء التقليد للفكرة الرائجة أو الدخيلة المدسوسة. ولئن كانت هذه الابحاث التي أشرت اليها جاهزة في هيكلها العام وأجزائها المفصلة فانها تحتاج لاخراجها وعرضها إلى إعداد، وأرجو الله تعالى أن يتيح لذلك فرصة قريبة وهو المستعان وعليه التكلان.

محمد المبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

المجتمع العربي

المقدمة

قد نتساءل لماذا ندرس المجتمع العربي وما الغاية من دراسته ؟ والجواب على هذا التساؤل هو :

١ — اننا ندرس المجتمع العربي لأنه المجتمع الذي نعيش فيه ، فهو بيئتنا التي يجب أن نعرفها ونتآلف معها ، والبيئة التي نحاول أن نصلحها ونسام في تحسينها وترقيتها ، ومعرفتها شرط أساسي لابد منه للتمكن من إصلاحها .

وإذا كنا ندرس مبادىء الاسلام وتعاليمه وعقيدته وتشريعه في كلية الشريعة ، فانما هدف هذه الدراسة إصلاح المجتمع الانساني على هذه الاسس السليمة المتينة وإيصاله الى هذه الأهداف الانسانية.

السامية ، ولا بد لتحقيق هذه الغاية من دراسة المجتمع الذي يراد إصلاحه ، ومعرفة البيئة التي يراد تطبيق هذه المبادىء فيها ، ولذلك يدرس العربي مجتمعه الخاص ، كما يدرس الأندونسي والباكستاني والأفغاني وغيرهم من أبناء البلاد الاسلامية ، مجتمعاتهم التي يريدون إصلاحها ، دراسة علمية تعرفهم بما فيها من أحوال ، وما يجري فيها من تبدلات ، وما يقع من مشكلات .

٢ — وثمة سبب آخر يقتضي دراسة المجتمع العربي في كلية الشريعة ، وذلك أن المجتمع العربي هو بيئة الاسلام الأولى ، فمنه شع نور الاسلام ، وبلغته تنزلت آيات الكتاب الكريم ، ولا بد لفهم هذه الآيات وما تضمنته من أحكام ، من معرفة عادات العرب وأساليبهم في الحياة ، لأن الخطاب وجه أول ما وجه اليهم ، فهو وإن كان عاماً في حكمه ، خاص في أسلوبه وطريقة إلقائه ، فقد جاء على طريقتهم في الخطاب ، ولا بد من تحكيم فهم العرب وعاداتهم في تفسيره . ولا بد أن تكون ثمة حكمة آلهية في اختيار البيئة العربية مهبطاً للرسالة وقاعدة لانطلاق الدعوة الاسلامية ، وهي دعوة إنسانية عامة لا تخص شعباً ، ولا تنحصر في أرض .

٣ — وان انطلاق الدعوة الاسلامية ومبادىء الاسلام في هذا العصر يجب أن يبدأ من حيث بدأ في الانطلاقة الأولى ، ومن أجل هذه الغاية يجب أن ندرس المجتمع العربي دراسة تمكننا من معرفة أحواله وظروفه ، وتمكننا من جعله أساساً لهذا الانطلاق .

نواحي دراسته :

إن معرفتنا لهذا المجتمع تقتضي معرفة حاضره وماضيه ، وتصور مستقبله وتطوره ومصيره ، وتشتمل على دراسة نواحيه السياسية والاقتصادية والفكرية والخلقية والاجتماعية ، وعلى معالجة مشكلاته في هذه النواحي ، وعلى صلاته بالعالم الخارجي والشعوب الأخرى ، سواء في ذلك صلاته مع الشعوب التي تشترك معه في الثقافة أو الدين ، أو مع الشعوب التي غزته واستعمرت بلاده ، وعلى مشكلاته كذلك في هذه الصلات الخارجية .

العالم ينقسم الى شعوب

تتكون البشرية من شعوب ، أو أقوام ، أو قوميات ، يتميز كل منها بأرضه ولغته وعاداته وتقاليده ، سواء أكان هذا الشعب يكون دولة أو جزءاً من دولة أو أكثر من دولة ، وكل هذه الأحوال واقعة ولها شواهد في الحاضر والماضي . وتختلف الشعوب في تكوين ظروفها التاريخية ، وفي صفاتها المادية والمعنوية وفي خصائصها التي كونتها أرضها وتاريخها خلال قرون طويلة جداً ، وفي لغاتها ولهجاتها وفي أمزجتها وعقلياتها ، ويحصل بين أفراد الشعب الواحد بسبب الاشتراك في هذه الأمور من التآلف الطبيعي والحياة المشتركة الطويلة ما لا يكون بينهم وبين غيرهم ، فكما أن التآلف في نطاق الأسرة طبيعي يستند الى الغريزة والفطرة الطبيعية ، فكذلك يحصل من التآلف في نطاق أوسع داخل كل شعب أو قوم مايشبه ذلك التآلف الطبيعي بسبب التشابه والتعايش الطويل .

وليس اختلاف الشعوب نقمة ، بل نعمة ، ذلك أن التعاون

البشري بين الجماعات ، كما هو بين الأفراد ، يتم على أساس التكامل واستفادة كل واحد مما يحسنه الآخر ، فيتم تبادل المنافع بقيام كل شعب بما يحسنه ويميل اليه من الماديات والمعنويات .

وان اختلاف الأقوام في صفاتها وخصائصها ومواهبها وعددها وقوتها ، لا يمنع من تساويها في القيمة المعنوية والكرامة الانسانية ، ولا تمنع كذلك من اشتراكها في بناء الحضارة والتقائها على صعيد واحد مشترك في كثير من الشؤون ، وإذا كان ارتباط الانسان بقومه الذي ينتمي اليه ، وشعوره بالتضامن معهم بسبب عوامل نفسية واجتماعية قوامها الحياة المشتركة ، وهو ما يعبر عنه **بالشعور القومي** ، شعوراً طبيعياً فان نزوع الشعوب الى الالتقاء وتطورها الواقعي ، ولا سيما في العصر الحاضر ، نحو أهداف مشتركة ، ونمو التقارب والتشابه فيما بينها وتعاونها في كثير من ميادين العلم والاقتصاد والسياسة وغيرها ، يدل كذلك على أن النزعة الانسانية في جميع الأقوام نزعة طبيعية كذلك . وقد كان للأديان السماوية أثر قوي في تقوية هذه النزعة الانسانية ، وفي توطيد الصلات بين الشعوب وإيجاد نقاط الالتقاء بين الشعوب التي دانت بدين واحد .

وتحاول المذاهب السياسية الجديدة الاستفادة من هـذا الاتجاه الطبيعي نحو الانسانية لتوطيد أسسها وتمكين قواعدها.

ونستطيع إجمال ما ذكرناه في نتيجتين:

١ — ان البشرية كانت ولا تزال مؤلفة من أقوام أو شعوب تختلف في لغاتهـا وأوطانها وفي كثير من الصفـات والخصائص والظروف والأحوال.

٢ — إن الأقوام تتطور سائرة باتجاهها نحو الالتقاء والتعاون الانساني، وتزداد في كل يوم ساحة الالتقاء ونقاط الاشتراك حتى أصبحت القوميات المغلقة قوميات متخلفة عن ركب التطور الحضاري.

وتلخص هذه النتائج أروع تلخيص في أوضح تعبير الآية القرآنية القائلة: « يا أيها النَّاس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتعارَفوا ».

المجتمع العربي

في هذا العالم المؤلف من قوميات كثيرة وشعوب عديدة ، بلاد تمتد في رقعة واسعة من الأرض ، يسكنها شعب لغته العربية ، يشترك في عاداته وتقاليده ، وفي تاريخه العام ، وفي صلته بالشعوب الأخرى وفي ثقافته ومثله العليا ، تلك هي البلاد العربية ، وتسمى أحياناً العالم العربي ، وأحياناً أخرى الوطن العربي ، ويطلق على المجتمع الذي يتكون من سكانها (المجتمع العربي) .

الموقع والأرض :

تمتد الأرض التي يسكنها الشعب العربي من حدود إيران شرقاً إلى ساحل البحر المحيط الأطلسي غرباً ، ومن جبال طوروس على حدود تركيا شمالاً الى ساحل جنوب الجزيرة العربية جنوباً ، وتقرب مساحة هذه الأرض من مساحة أوربا ، وتزيد على مساحة أمريكا ، وهي تلي مساحة الاتحاد السوفيتي ، وتتوزع بين قارتي آسيا وأفريقيا .

وموقع البلاد العربية موقع هام جداً ، ذلك أنها تتصل بقارات ثلاث ، وبعدد كبير من الشعوب ، وبأربعة بحار هي (الاطلسي والمتوسط والاحمر والهادي) ولذلك كانت هذه البلاد نقطة اتصال بين قارات الارض ، تخترقها طرق المواصلات البرية والبحرية والجوية التي تصل أجزاء العالم بعضها ببعض .

وتمتاز هذه البلاد باتصال أجزائها وامتدادها على رقعة واسعة من العالم وإن كانت تحجز بينها بعض الحواجز الطبيعية كالصحارى، وذلك مما سبب انقسامها الى مناطق وأقاليم وهي :

١ — منطقة بلاد الشام وتشتمل اليوم على سورية ولبنان والاردن وفلسطين .

٢ — منطقة العراق .

٣ — الجزيرة العربية ، وتشتمل على المملكة العربية السعودية (نجد والحجاز) واليمن وأمارات الجنوب العربي والكويت وقطر والبحرين وعمان .

٤ — وادي النيل ، ويشتمل على مصر والسودان .

٥ — المغرب العربي ، ويشتمل على ليبيا وتونس والجزائر والمملكة المغربية .

وللبلاد العربية فوق هذا امتدادات في جنوب المغرب العربي وجنوب السودان وعلى سواحل افريقيا الشرقية .

ولكن هذه المناطق والاقاليم على تعددها وتنوعها يسكنها شعب يشترك في جميع مقوماته الاساسية في الحياة ، وليس الاختلاف بينها بأكثر من الاختلاف بين أقاليم البلاد الاخرى ومناطقها في تنوع اللهجة اللغوية وبعض عاداتها في اللباس والطعام وغيرها ، في حين أن عناصر الاشتراك والتقارب هي الغالبة غلبة واضحة كما سيبدو لنا من دراستها .

وتمتاز هذه الأرض التي يسكنها الشعب العربي :

١ — بموقعها المتوسط الممتاز بين القارات والبحار والشعوب واتصال أجزائها .

٢ — بسعتها واشتمالها على أنواع مختلفة جديدة من الأقاليم من باردة ومعتدلة ، إلى حارة استوائية ، ومن جبال شاهقة ، إلى سهول منخفضة ، ومن صحارى واسعة ، إلى سهول مزروعة وغابات كثيفة ،

وبهذا التنوع يحصل التكامل بين الأجزاء، ويسهل التعاون والتبادل بين المناطق والأقاليم.

ولكن هذه البلاد العربية المتصلة في أرضها وسكانها، تنقسم إلى أقسام سياسية مصطنعة وتتألف من ثلاث عشرة دولة مستقلة هي: (العراق وسورية والأردن ولبنان ومصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمملكة المغربية والمملكة العربية السعودية واليمن والكويت) وأخرى تحت الحماية البريطانية كعمان المجاهدة لنيل الاستقلال وقطر والبحرين وأمارات ومشيخات الجنوب العربي، ومنها أرض عربية محتلة مغتصبة وهي فلسطين.

السكان:

يربو عدد سكان البلاد العربية في أيامنا هذه على ثمانين مليوناً، أي أنها تأتي في مرتبة الشعوب الكثيرة السكان في العالم، ولكن توزع هؤلاء السكان يختلف في كثافته اختلافاً كبيراً بحسب المناطق ثروة ورقياً، وأما الكثافة العامة الاجمالية فهي قليلة جداً، ولذلك فان موضوع تحديد النسل الذي بحث واقترح في بعض المؤتمرات الدولية بالنسبة للبلاد العربية أمر خطير جداً لا يقصد منه إلا تقليل سكان المجتمع العربي وإضعافه اقتصادياً وعسكرياً.

تنسب هذه البلاد التي وصفناها وحددناها إلى العرب . ويوصف أهلها كذلك بالعربية ، والشعب الذي يسكنها هو الشعب العربي . فمن هم العرب ؟ وبم يمكن تمييزهم عن غيرهم ؟ وماهي العوامل الجامعة لهم والرابطة بينهم ؟

لقد كانت الدائرة العربية قبل الاسلام تحدد بحدود الجزيرة العربية مع امتدادات قليلة خارجها في جهات الشام والعراق بسبب هجرة بعض القبائل العربية في ذلك العصر واستقرارها في هذين البلدين ، وكانت الجزيرة العربية محاطة من الشمال بأقوام تتصل بالعرب برابطة قديمة من القربى والتجاور وصلات اللغة ، وهؤلاء هم : الآراميون والكلدانيون والعموريون والكنعانيون والفينيقيون والعبرانيون ، وتعرف هذه الأقوام باسم الساميين ولغاتهم باللغات السامية نسبة إلى سام بن نوح . والحقيقة التاريخية تؤكد بأن بين هذه اللغات تقارباً وتشابهاً واشتراكاً في النحو والمفردات والحروف ، كما تؤكد تجاور هذه الأقوام في الأرض واختلاطهم واشتراكهم في كثير من عصور التاريخ وفي العقائد الدينية ، ويرجح مؤرخو هذا العصر أن المنبع الأصلي لهذه الشعوب هو الجزيرة العربية منها خرجوا في موجات متعاقبة خلال عصور متطاولة في

التاريخ وتوزعوا في هـذه البلاد القريبة من الجزيرة ما بين العراق والمغرب وحتى حدود بلاد الروم (تركيا حالياً) ولـكنهم انتهوا إلى تـكوين شعوب يتميز بعضها عن بعض في اللغـة والحيـاة الاجتماعية والسياسية .

ولكن الحدث التـاريخي الهام الذي طرأ على هـذه البقعة من الأرض فغير تاريخها وصهرهـا في قالب واحد ، هو الفتوحات الاسلامية ، ذلك أن هذه الفتوحات التي كان انطلاقهـا من الجزيرة العربية كانت لها دائرتان ، إحداهما واسعة وهي التي بلغها الاسـلام حتى عمها جميعاً ، والثانية هي الأصغر ، وهي التي عم فيها الاسـلام واستعرب أهلها . ذلك أن سكان هذه البلاد المحيطة بالجزيرة والقريبة منها كالعراق والشام ومصر والمغرب قد انتشـرت فيهم اللغة العربية وأفحمت اللغات السامية السـابقة ، اللهم إلا قليلاً من سكان المغرب الذين بقيت فيهم اللغة البربرية ، ولا تزال ، مع اتخاذهم العربيـة لغة الثقافة والدين .

وقد سـاعد على هذا التعريب أُمور كثيرة : منها انتقال قبائل كثيرة من عرب الجزيرة واستقرارهم في هـذه البـلاد واختلاطهم

بأهلها ، ومنها سبق هجرة بعض القبائل اليها قبل الاسلام ، ومنها قرب السكان الأصليين من العرب في أصل الجنس واللغة والمعتقدات ، ومنها دخول أكثرهم في الاسلام . وهكذا انتهى الأمر إلى أن يسكن هذه البلاد شعب لغته العربية يرجع أكثره إلى أصل عربي أو مستعرب ، ويدين أكثر أفراده بالاسلام ، ويشتركون في ثقافة عربية واحدة ، وفي تاريخ مشترك قديم وحديث ، ذلك هو (المجتمع العربي) .

المجتمع العربي والعالم الاسلامي

إذا القينا نظرة عامة شاملة على البشرية في العصر الحاضر وجدنا أنها تتألف من شعوب شتى وقوميات متعددة مختلفة ، وانها من جهة أخرى تتألف من عوالم كبرى يشتمل كل واحد منها على شعوب عديدة تشترك في بعض المقومات وترتبط ببعض الروابط التي تقرب بينها وتجعلها تلتقي عند بعض أهداف الحياة وقيمها ومثلها . وهذه الروابط هي روابط الفكرة المشتركة وفلسفة الحياة المتشابهة والعقائد المتماثلة أو المتقاربة ، ويزداد التقارب بين الشعوب بازدياد التقارب في الفكرة والمفاهيم والعقيدة . والعالم اليوم ينقسم انقساماً واضحاً إلى :

١ — عالم إسلامي ٢ — عالم شيوعي

٣ — عالم ديمقراطي مسيحي ٤ — عالم وثني

ونستطيع بكل سهولة أن نصور مخطط العالم الجغرافي ونلون كل عالم من هذه العوالم بلون خاص ، ونجد حينئذ أن كل واحد منها

مستقر في رقعة خاصة به من هذه الأرض ، والغالب أن هذه الرقعة متصلة . فالعالم الشيوعى يمتد فوق آسيا وأوروبا باتصال ما بين الصين وروسيا ، والعالم الديمقراطي المسيحي يشتمل على أوربا وأمريكا ، والعالم الاسلامي يمتد من جنوب آسيا وأواسطها حتى أقصى افريقيا غرباً وأواسطها جنوباً ، وأما العالم الوثني فينقسم مابين آسيا وافريقيا في رقعتين منفصلتين ، وليست الوثنية في الأصل عقيدة واحدة ولا ديناً واحداً مع وجود صفات مشتركة بين العقائد الوثنية .

وإذا أردنا أن نحدد موقع العالم العربي من العالم وجدنا أنه يقع في العالم الاسلامي وانه يرتبط مع شعوب العالم بروابط كثيرة في الماضي والحاضر .

١ — فان بين شعوب العالم الاسلامي اشتراكا في النظرة إلى الوجود وفلسفة الحياة ومفاهيمها العامة ومثلها العليا ، وذلك لأن انتشار الاسلام بين هذه الشعوب أوجد بينها وحدة في هذه المفاهيم المنبثقة عن عقيدة الاسلام وشريعته ونظراته التي تضمنها القرآن والسنة ومصادر الثقافة الاسلامية التي تفرعت عنها .

وهذه النظرة المشتركة نجدها عند الخاصة والعامة من أبناء هذه الشعوب رغم مزاحمة النظرات الأخرى الأجنبية لها ، تلك النظرات والفلسفات المستقاة من الثقافة الغربية ، حتى أن التلاقح بين الثقافتين أصبح صفة مشتركة بين هذه الشعوب وقد أحدث آثاراً متشابهة وولد مشكلات متماثلة في مجتمعاتها .

وقد ولدت هذه النظرة الاسلامية المشتركة في هذه الشعوب ، ومن بينها الشعب العربي ، مواقف متشابهة أو متماثلة من القضايا المعاصرة والمشكلات الحديثة ، سواء في السياسة وأنظمتها ، أو الاقتصاد ، أو الأسرة والمرأة ، أو التربية والتعليم ، أو العادات الجديدة .

٢ — يكون الاسلام وثقافته جزءاً أساسياً من ثقافة هذه الشعوب ، فهي تعتبر دراسة القرآن الكريم، والسيرة النبوية، والتاريخ الاسلامي ، وتاريخ الحضارة الاسلامية ، وغير ذلك من فروع الثقافة الاسلامية ، ثقافة أساسية تعلمها لأبنائها في مختلف مراحل التعليم ، وتحل اللغة العربية مكانة عالية لانها الوسيلة لفهم هذه الثقافة من مصادرها الأصلية وتسعى إلى تعلمها ونشرها.

وللغة العربية والثقافة الاسلامية في جميع الشعوب الاسلامية مراكز منتشرة ومعاهد ومؤسسات ومدارس من مختلف المستويات والأنواع ، بل ان بعض هذه البلاد كالباكستان والهند يعتبر من أهم مراكز الثقافة العربية والاسلامية بما ألف فيها من كتب قديماً وحديثاً ، وما نشر في مطابعها ومعاهدها ، وما أنجبت من علماء في الدين واللغة .

٣ — وتعتبر الشعوب الاسلامية أن تاريخ الاسلام تاريخها الذي تعتز بأمجاده ، وتفتخر بمآثره وآثاره الحضارية وفتوحاته المحررة للبشر من الأساطير والخرافات والعقائد الوثنية والعادات القبيحة ، الناشرة للعقائد الصحيحة والمفاهيم الراقية والمؤسسات العلمية والأنظمة العادلة ، وترى في أبطال هذا التاريخ أبطالاً للانسانية ، وترى في اشتراكها في هذا التاريخ وفي دخول الاسلام الى بلادها سلماً أو حرباً اشتراكاً في تحرير البشرية وتقدمها وأخذها في طريق الخير والسعادة للانسانية ، ويعتبرون الفاتحين الأولين والناشرين للاسلام أعلام هذه المعركة التحريرية وأبطالاً وأنصاراً لله يتقرب اليه بذكر سيرتهم المعطرة ودراستها .

٤ — ان هذا الاشتراك في العقيدة والثقافة والتاريخ ولد في نفوس أبناء هذه الشعوب عواطف متشابهة ، ومواقف في الحياة متجانسة ، وآمالاً وأهدافاً مشتركة ، سواء أكانت هذه الأهداف نظرية مثالية كانتشار عقيدة التوحيد والإيمان بالله تعالى وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً إلى العالمين ، وبالقرآن كتاباً إلهياً ودستوراً للحياة ، أم كانت عملية كتحرير فلسطين من أيدي الصهيونيين الآثمين ، وتحرير البلاد العربية والاسلامية من الاستعمار ، ولذلك كانت مواقف أكثر حكومات هذه الشعوب في القضايا الدولية مواقف طيبة في نصرة الحق في جميع القضايا العربية والاسلامية ، إلا بعض الحكومات التي تأثرت بالاستعمار والصهيونية العالمية تأثراً كبيراً غلب على تأثير شعوبها ، والعبرة على كل حال للشعوب لا للحكومات في هذا الموضوع . وان اندونيسيا والباكستان والأفغان ، وهي أكبر الدول الاسلامية ، مع مجموعة الدول العربية ، كانت إلى جانب البلاد العربية في جميع القضايا الدولية ، وفي مقدمتها فلسطين والجزائر أثناء نضالهما في سبيل الاستقلال . أضف إلى هذا ما تكنه هذه الشعوب من محبة بالغة عميقة وتعظيم وتقدير كبير للشعب العربي

الذي تعتبره مصدر الخير والسعادة ، لأن الاسلام ظهر في أرضه ، ونزلت آياته بلغته ، وكان الرسول العظيم والمنقذ للبشرية صلى الله عليه وسلم من أبنائه .

٥ — وقد أوجد الاسلام بتعاليمه العملية ، وأحكامه المتعلقة بأمور الحياة ، من طعام وشراب ولباس وتنظيم للمعاملات وللاسرة ، عادات متشابهة جداً في جميع هذه الميادين ، ذلك ان المسلم يراعي في طعامه أحكام الشريعة فيما يؤكل وما لا يؤكل ، وكذلك في استعماله للأشياء وفي حكمه عليها حسناً وقبحاً ، كما ان تنظيم الزواج والطلاق والارث وعلاقات أفراد الأسرة المادية والمعنوية تدخل في نطاق أحكام الاسلام ويطبقها المسلمون فعلاً ، ولذلك نشأت في الشعوب الاسلامية عادات متشابهة في حياتهم اليومية ، في حياة الفرد والأسرة في البيت وفي المجتمع وعلى اختلاف ألوانهم وأشكالهم وبيئاتهم ، وهذا الاشتراك في العادات اليومية العملية إذا أضفته إلى تلك الروابط المشتركة في العقيدة والثقافة والتاريخ ، وجدت نفسك أمام شعوب تتقارب وتتشابه وتتعاطف وتتعاون ، أو قل إن بينها من أسباب الحياة المشتركة والصفات المتشابهة والاتجاه المقارب ما يسهل تعاونها ويمهد

لاشتراك أوثق ويجعلها في موقف تختلف عنه بقية الشعوب التي لا تشترك معها في هذه الأمور الحيوية وفي هذه المجالات ، وان الذي ينكر هذه الحقيقة ويتجاهلها إما أن يكون ذا فكرة سابقة خاطئة لا تمكنه من التجرد والحكم الموضوعي ، وإما أن يكون مدفوعاً بهوس خاص ، أو أن يكون هدفه الكيد للعرب والعمل لاضعافهم ومحاربة الاسلام بدافع استعماري أو تعصبي ذميم.

العوالم الاخرى

يجاور العالم الاسلامي ويحيط به عوالم أخرى يجمع بين أجزاء كل منها ، على اختلاف الشعوب التي تتألف منها ، حضارة واحدة أو متشابهة وثقافة مشتركة ، أو على الأصح مفاهيم وعقائد مشتركة ، فهي ليست تكتلات سياسية وإنما هي مجموعات حضارية وعقائدية ، وهذه العوالم هي :

١ — العالم المسيحي الديمقراطي :

وهو العالم الذي يتكون من أكثر بلاد أوربا ومن أمريكا وتقوم منه حضارة واحدة في أصولها التاريخية وعناصر تركيبها

ومفاهيمها الحاضرة ومستواها الاجمالي ، فهي كلها تستقى من الديانة المسيحية ومن الثقافة اليونانية القديمة ، وما لقحت به من الحضارة الاسلامية ، وما نشأ عن تفاعل هذه العناصر في الحضارة الحديثة من صناعة كبرى ونظم اقتصادية كانت في الاصل رأسمالية ثم عدلت بالاقتصاد الموجه الاشتراكي ، ومن مفاهيم عن الحرية والديمقراطية. ولهذا العالم صلات عديدة متنوعة بالعالم الاسلامي ومنه العالم العربي. فمن هذه الصلات :

١ — الصلة الثقافية ، فقد كانت الفلسفة اليونانية مشتركة بينهما كما أخذت أوربا عن العالم الاسلامي كثيراً من نظريات علم الكلام والعلوم المادية كالطب والفلك والرياضيات والكيمياء ، ثم كانت الصلة الثقافية الحديثة حين أخذ العالم العربي والعالم الاسلامي جميعهما عن أوربا ثقافتها وعلومها في القرنين الاخيرين ، ويضاف إلى ذلك مابين الاسلام والنصرانية من مفاهيم دينية مشتركه .

٢ — الصلة الاقتصادية : وبين العالمين صلات تجارية قديمة ، ولكنها ازدادت في العصر الحديث زيادة كبيرة .

وهذان النوعان من الصلات أحدثا تأثيراً كبيراً في العادات الاجتماعية.

٣ـ الصلة الحربية: وبين العالم المسيحي الديمقراطي والعالم الاسلامي ومنه العالم العربي صلات حربية عدائية، بدأت بالحروب الصليبية ثم انتهت إلى الحروب الاستعمارية، والتي انتهت إلى الوضع الاستعماري الذي استمر مدة طويلة وأحدث جفاء وعداء بين العالمين الاسلامي والغربي ولا تزال بقاياه موجودة قائمة، وإن كانت أكثر البلاد العربية والاسلامية قد استقلت وتحررت، ولكن بقي قسم قليل منها لم يتحرر، وبقي في بعضها النفوذ الاستعماري أو المطامع الاستعمارية، وقد سببت هذه الصلات العدائية اتجاهاً ثقافياً معادياً للاسلام، ينحرف عن البحث العلمي المجرد وعن الامانة العلمية في سبيل تحقيق فكرة استعمارية، أو جرياً مع التعصب على الاسلام. وقد كانت هذه النزعة في العصر الماضي أشد مما هي عليه الآن، ومع ذلك فقد وجد من الباحثين والمستشرقين من تجرد عن الهوى والعصبية، أو حاول هذا التجرد، فانصف العرب والاسلام في أبحاثه ومؤلفاته.

وينبغي أن لا ننسى أن لليهود، وهم منبثون في جميع أجزاء العالم المسيحي ولهم في كل بلد نفوذ وأثر كبير، نصيباً أساسياً في إبقاء هذه الروح العدائية عن طريق العلم والسياسة والصحافة والنشر.

وان مستقبل العلاقات بين العالمين الاسلامي ومنه العربي، والأوربي المسيحي مرهون بتصفية الاستعمار وبناء العلاقات السياسية والاقتصادية على أساس المساواة والمصالح المتبادلة ، ومرهون كذلك بتصفية الروح العدائية المتعصبة التي ينظر الغرب من خلالها إلى عالمنا العربي والاسلامي وعلى أساسها يسير في أبحاثه العلمية وما ينشره في صحفه ومجلاته ومؤلفاته . ولا شك أنه سيجد حينئذ في الصلات القديمة بين الثقافة العربية واليونانية والرومانية منذ عصور طويلة، وفي المفاهيم الدينية المشتركة والمختلفة عن الديانات الوثنية والنظريات الالحادية ، سيجد في ذلك كله وفي مجالات الاقتصاد والصناعة أسباباً للتعاون الشريف القائم على المساواة والعدالة والحق .

٢ — العالم الشيوعي :

وهو عالم يتكون حالياً من جزء انسلخ من العالم المسيحي الغربي وجزء آخر في آسيا كان من العالم الوثني .

يختلف هذا العالم عن المجتمع العربي وعن العالم الاسلامي اختلافاً جوهرياً أساسياً من حيث فلسفته وعقيدته ومفاهيمه ، فالأساس الفلسفي الاعتقادي الذي تقوم عليه الشيوعية هو المادية المنافية للعقائد

الدينية منافاة تامة ، والاسلام هو الأساس الفلسفي الاعتقادي لمجتمعات العالم الاسلامي ، وبين الاسلام والفلسفة المادية تنافر واختلاف .

يضاف إلى ذلك أن في داخل العالم الشيوعي شعوباً إسلامية فرض عليها النظام الشيوعي والعقيدة الشيوعية . والعالم الاسلامي يعتبر هذا الحادث خسارة كبرى وضربة شديدة للاسلام مهما حاولت الدول الشيوعية أن تخفف من ألم هذه الضربة بفسح المجال للمسلمين بعد الحرب العالمية الثانية أن يمارسوا شعائرهم الدينية الخاصة ، وذلك دون أن يغيروا من موقفهم الأساسي من الدين الذي يعتبرونه خرافة ومخدراً للشعوب .

أما الصلات العلمية بين العالم الاسلامي والشيوعي فهي تتأثر أولاً بما كانت عليه الصلات مع روسيا السابقة الارثوذكسية المذهب والصين البوذية سابقاً ، وتتأثر بوجه خاص بالأوضاع السياسية والدولية لكل بلد من البلدان الاسلامية وبسياسة الاتحاد السوفيتي والصين من جهة أخرى . فبعض البلاد الاسلامية اتجهت لمحاربة الاستعمار الغربي الذي كانت تتلظى بناره نحو الحياد وعدم الانحياز

وبالتالي إلى العلاقات الحسنة مع الاتحاد السوفييتي لتستعين بهذه الصلة الحسنة لصد عدوان المعسكر الآخر ، وللاستفادة من الامكانيات الاقتصادية والحربية التي تتيحها الدول الاشتراكية للدول الناشئة أو المتحررة من الاستعمار . وقد أمكن السير في هذه السياسة بسهولة في البلاد الاسلامية ، لأن الاسلام يجيز من الوجهة الخارجية أن تهادن الدولة الاسلامية دولة أخرى ولو كانت عقيدتها مخالفة للاسلام وللاديان السماوية إذا وجدت في ذلك مصلحة لها ، وفي صلح الحديبية في السيرة النبوية ما يؤيد ذلك . على أن العلاقات بين العالمين الاسلامي والشيوعي من العسير أن تتعدى هذه المرحلة من العلاقات الاقتصادية والخارجية لما بينهما من تباين تام في الأساس الاعتقادي ، بل من حرب بين فكرتين ، إحداهما دينية تحارب الالحاد ، والثانية إلحادية تحارب الدين ، وان وجود أحزاب شيوعية في داخل البلاد الاسلامية مما يزيد العلاقة بين العالمين جفاءً وبعداً ، لأن الشعوب الاسلامية تقف من هـذه الأحزاب موقفاً عدائياً بدافع من دينها وعقيدتها ، والمجتمع العربي يقف كذلك هذا الموقف نفسه ، وهذا قد يسبب بطريقة غير مباشرة شيئاً من الاستياء على الأقل في المراكز

الشيوعية العالمية الموجودة في داخل البلدان الشيوعية. ولذلك كان حسن الصلة بين العالمين مرهوناً بوقوف العالم الشيوعي موقف الاحترام لعقائد البلاد العربية والاسلامية وعدم المساس بها وقطع كل صلة ظاهرة أو خفية مع أي هيئة أو حزب في داخل هذه البلاد، وإعطاء الحرية الدينية الكاملة للشعوب الاسلامية التي تعيش في ظل الحكم السوفييتي أو الصيني.

٣ — العالم الوثني الاسيوي والافريقي :

أما صلة العالم الاسلامي بالعالم الوثني فانها تختلف من شعب إلى شعب ، ذلك لأن بعض الشعوب الوثنية لم يحصل بينها وبينه عداء أو حروب كما هي الحال مثلاً في سيلان وفي بورما وفي شعوب افريقيا ، وبعضها حصل بينها وبين الشعوب الاسلامية خصومة أو عداوة كما هي الحال في الهند بين الهنادك والمسلمين .

ومن هذه الشعوب الوثنية من تفتح أبوابها للاسلام فينتشر بينها كما هو واقع في افريقيا .

والعالم الوثني لايؤلف وحدة مترابطة ، بل هو مؤلف من شعوب

عديدة في آسيا وأفريقيا تدين بعقائد متشابهة أو ذات طبيعة وخصائص متقاربة ، ففي كل منها مثلاً حيوان مقدس أو أكثر، وفيها تقديس لتماثيل وحجارة خاصة ، وفي العالم الوثني كتلتان أو دينان كبيران وهما البوذية المنتشرة في الصين والهند الصينية (بورما، تايلاند كمبوديا) والبرهمية بفروعها المنتشرة في الهند .

وتغزو هذا العالم الوثني ثلاثة تيارات أو اتجاهات، أحدها المسيحية ببعثاتها التبشيرية ، والاسلام بانتشاره الطبيعي ولا سيما في أفريقيا ، والفلسفات المادية الحديثة على اختلاف صورها . وصلة المجتمع العربي والشعوب الاسلامية الأخرى بهذا العالم في المستقبل إنما تكون بحسب اتجاهه الفكري والعقائدي من جهة ، ومواقفه السياسية من جهة أخرى من القضايا العربية والاسلامية .

الامة والقومية

لا بد لنا قبل بيان العوامل المؤثرة في تكوين القوميات والعوامل التي تكون الأمة وبيان مدلول الأمة والقوم والشعب والقومية من القاء نظرة تاريخية عامة تعرفنا أشكال المجتمعات البشرية واتجاهها في التطور .

يبدو للناظر في الحياة البشرية أن القبيلة هي المرحلة الأولى التي مرت البشرية بها ولا يزال بعضها يمر بها حتى اليوم، وان القبائل التي ترجع إلى أصل واحد وتعيش متجاورة في أرض واحدة وتتحدث بلغة واحدة أو لهجات متقاربة ، يزداد الاشتراك بينها في شؤون الحياة وتكثر الصلات ويقوى التعاون حتى تؤلف شعباً واحداً أو قوماً . كذلك نشأت الأقوام المعروفة من عرب وأتراك وهنود وروس وانكليز وإيطاليين وألمان مثلا ، ولا تزال معالم الحياة القبلية ورواسبها باقية في كثير من الشعوب الراقية حتى اليوم ، لا يعرفها إلا أبناء تلك

الشعوب ومن خالطهم مخالطة طويلة وعرف دخائل حياتهم، ونستدرك على ماقلناه أن القوم قد يتكون من مجموع شعوب صغيرة متقاربة ، وكل شعب يتكون في الأصل من مجموع قبائل تقاربت وانصهرت. إن قطع هذه المرحلة من القبلية إلى القومية لا يتم في وقت واحد في جميع البشرية ، فان بعض الشعوب قطعتها من زمن قديم كالعرب والفرس ، وبعضها حديثة العهد بها كأكثر شعوب أوربا التي تكونت في خلال هذه القرون الماضية القريبة ، وبعضها لم تجتز بعد هذه المرحلة .

في المرحلة القبلية تكون القبيلة هي الاطار الوحيد لنشاط الأفراد وفعالياتهم ، ويكون الارتباط داخل الاطار الكبير وثيقاً والتضامن شديداً إلى حد العصبية ، وتكون العلاقة فيما وراء القبيلة معدومة أو ضعيفة أو سلبية ، وحينما تنتقل القبائل إلى مرحلة تكوين شعب واحد تنشأ بين أفراد القبائل المتقاربة صلات من التعاون تزداد قوة مع الأيام ، وتقل العصبية داخل القبيلة لتخلي مكانها لهذه الصلات الجديدة الناشئة ، على أن العاطفتين القبلية والقومية تعيشان معاً مدة طويلة وربما حصل بينهما صدام ونزاع خلال عصور طويلة إلى أن يتم

انصهار القبائل في قومية واحدة .

وتبدأ القومية كذلك حياتها كما بدأت القبائل في دائرة مغلقة وفي شعور من التضامن الشديد داخل القومية وشعور من العداء أو السلبية لما هو خارج القومية ، هو شعور بأن الآخرين (غرباء) و (أجانب) مع ما كانت تحمل هذه الألفاظ من معنى الوحشة والبعد والجفاء إذا لم تحمل في ذاتها معنى الكره والبغض والعداء.

وهكذا تكونت في البشرية أقوام وشعوب خلال عصور التاريخ ولا تزال هذه العملية الاجتماعية ، عملية تكوين الشعوب سائرة في طريقها ، فان بعض الأقوام تتكون في هـذا العصر وبعضها سائرة نحو التكوين آخذة في الانتقال من القبلية إلى القومية وفي تحديد معالم مجتمعها الجديد وانصهار عنـاصره ، ويعين على ذلك نشوء إطار سياسي كما هي الحال في بعض الشعوب الافريقية التي تتحدد معـالم قومياتها في العصر الحاضر ويساعدها على ذلك نشوء دول مستقلة تحررت من الاستعمار ، وفي اطارهـا ستتفاعل العوامـل وتنصهر القبائل . وإن وحدة المانيا السياسية هي التي أتمت وأكملت انصهار أجزائها وقبائلها القديمة في قومية واحدة ، ونشوء دولة يوغوسـلافيا

بعد الحرب العالمية الأخيرة ساعد على ظهور معالم القومية السلافية التي لم يتح لها في التاريخ أن تكون مجتمعة موحدة مستقلة فقد كانت مجزأة وتابعة لدولة أخرى أو لأكثر من دولة .

وتتفاعل أجزاء الشعب الواحد أو القومية الواحدة خلال عصور التاريخ بسبب الاشتراك في الأرض والأصل واللغة والمصالح والتاريخ والمعتقدات والعادات ، وكلما كانت عوامل الاشتراك هذه أكثر شمولاً وامتداداً وأعمق وأقوى وأدوم على الزمن ، كان ارتباط أبناء الشعب وتضامنهم أقوى وكان ظهور هذه القومية بمظهر الجسم الواحد ذي الحياة الواحدة .

ولكن التطور البشري لم يقف عند هذا الحد فان تكاثر عدد البشر في كل شعب ونمو الحياة وازدياد الفعاليات البشرية أدى إلى اتصال الشعوب بعضها ببعض ونمو العلاقات السلمية بينها سواء في ميدان التجارة والاقتصاد أو في ميدان الأفكار والمعتقدات أو في مجال العلم والثقافة .

ولا شك أن الاتصال بين الشعوب كان على مراحل طويلة بدأت بالخروج عن الانعزال وحدوث علاقات ولو كانت حربية ، فان

الحرب نفسها صلة بين متحاربين يتأثر أحدهما بسلاح الآخر وطريقته في التفكير وهي صلة تنتهي بالهدنة والسلم، والسلم يؤدي إلى نوع آخر من الصلات .

وهنا بدأت مرحلة جديدة هامة في تاريخ البشرية وهي مرحلة الاتصال بين الشعوب والأقوام ، ونشوء صلات إنسانية مشتركة بينها ، وتكوين صعيد تلتقي عليه في ميادين الفكر والدين والاقتصاد والعادات وغير ذلك من نواحي الحياة ، فاشتركت شعوب وقوميات عديدة في عادات مشتركة أو في دين واحد أو في طرائق الحياة الاجتماعية أو السياسية ، وتطورت العلاقة القديمة التي كانت علاقة التضامن إلى حد العصبية داخل القومية الواحدة وعلاقة العداء خارجها إلى علاقة مزدوجة فهي تضامن في الداخل وتعاون في الوقت نفسه في الخارج على الصعيد الانساني ، وسار التطور البشري في اتجاهه نحو توسيع هذا الصعيد امتداداً وعمقاً ولا يزال يسير في هذا الاتجاه سيراً لا يقف عند حد .

ومن الطبيعي أن يكون هذا التعاون أوثق وأقوى بين الشعوب المتقاربة في الأرض المرتبطة بأنواع من الصلات المشتركة كالاشتراك

في الدين والاعتقاد أو في اللغة أو في التاريخ أو في الثقافة أو في غير ذلك من أسباب الاتصال والاشتراك ، وكلما تعددت أسباب الاتصال وتداخلت وتظاهرت وتعاونت ، كان الصعيد المشترك بينها أوسع وأعمق والصلة بينها أوثق وعواطف المودة أقوى ومجالات التعاون أكثر .

فالصعيد المشترك بين الانكليز والأمريكيين بسبب الاشتراك في اللغة والثقافة ، والصعيد المشترك بين البلدان الشيوعية بسبب وحدة العقيدة والنظام ، والصعيد المشترك بين شعوب العالم الاسلامي بسبب وحدة العقيدة والمفاهيم والاشتراك في بعض نواحي الثقافة والتاريخ ، تجعل كل مجموعة من هذه الشعوب تشترك في أمور لا تشترك فيها مع الشعوب الأخرى ، وتتميز عنها وتستطيع أن تحقق من أسباب التعاون ما لا تستطيعه مع غيرها على الصورة نفسها .

وهكذا فاننا نرى أن في البشرية نزوعاً إلى الخارج بدءاً من نقطة الانطلاق الأولى ، وكل ما تكسبه في المرحلة الأولى تضيفه إلى ما بعدها ، فالتعاون في داخل القبيلة والتضامن إلى حد العصبية هو الذي انتقل فيما بعد إلى تعاون وتضامن داخل الشعب الواحد ، فلئن

خسر جزءاً منه في داخل القبيلة ،وهو جزء العصبية المفرطة ، قد ربحه وأضافه إلى المرحلة الثانية ، مرحلة التعاون في داخل القومية الواحدة، وما خسره كذلك من العصبية القومية التي هي أكثر من التعاون والتضامن أضافه إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة التعاون الانساني بين أبناء القوميات والشعوب .

ويبدو لنا أن البشرية آخذة نحو تكوين كتل حضارية تتألف كل واحدة منها من عدد من الشعوب أو القوميات التي تشترك في عوامل كثيرة ، كالمعتقدات والمفاهيم والتشريعات والنظم والثقافة والعادات ، سواء أشتركت في تنظيم سياسي واحد ، أي في دولة واحدة ، أو في اتحاد دول ، أو في دولة اتحادية ، أم لم تشترك . وتتفاعل هذه الشعوب المشتركة في حضارة واحدة في داخل اطار هذه الحضارة وتتعاون في مجالات كثيرة ، وتزداد بينها عواطف الإخاء والمودة والمحبة ، وتشتد الرغبة في التعاون في أهداف الحياة وغاياتها والرغبة في إقامة حياة مشتركة خصبة عميقة تنسق فعاليات الشعوب المشتركة فيها وتستفيد من مختلف مزاياها وخصائصها وتنوع طاقاتها وإمكانياتها وإنتاجها المادي والمعنوي . ثم تلتقي الحضارات

أو الكتل الحضارية في صعيد مشترك كذلك وتتعاون في مجالات مشتركة وتختلف في مجالات أخرى غيرها . كل هذا يجري دون أن تذوب الأقوام والشعوب ، بل تحتفظ بذاتيتها وتتعاون مع غيرها، فان ظاهرة انقسام البشرية إلى أقوام يبدو أنها ظاهرة باقية غير زائلة ، وإنما الذي يزول هو العصبية القومية ، كما زالت العصبية القبلية والأنانية الفردية المفرطة من قبل ، ولكن القوميات كوحدات اجتماعية يبدو انها باقية ، وقد يكون في بقائها الخير كبقاء ذاتية الأفراد في المجتمع الواحد ، لأن من سنن الله تعالى في الكون تعاون الأنواع المختلفة والأجناس المتباينة ، ومن اختلاف خصائص الأفراد ومواهبهم وتنوع إنتاجهم ينشأ المجتمع ويتكامل ، ومن اختلاف الشعوب والأقوام وتعاونها على اختلاف مواهبها وخصائصها وإمكانياتها تنشأ الحضارة الانسانية وتتكامل . وإنما المهم هو اتجاهها جميعاً نحو التعاون الانساني على أساس من العدالة والمساواة في الكرامة الانسانية .

. . .

نستطيع بعد هذه النظرية التطورية التاريخية التي قدمناها أن

نحدد مفاهيم بعض الألفاظ المستعملة في هذه الأبحاث :

فالقوم هم جماعه بشرية نشأت من اندماج قبائل ترجع إلى أصل واحد أو أصول متقاربة وتسكن أرضاً واحدة ولها لغة واحدة .

والقومية هي هذا المجتمع القومي بجميع عناصره المادية والمعنوية من أرض ولغة ومعتقدات ومفاهيم وأخلاق وثقافة وحضارة في حاضره وماضيه . فالقوم هم أفراد البشر الذين تجمعهم هذه الروابط كلها ، أما القومية فهي القوم مع جميع العوامل الحية المشتركة فيما بينهم والتي جمعت بينهم المادية منها والمعنوية .

والشعب تطلق على القوم وتطلق على مادون ذلك أحياناً ، فيقال: الشعب العربي ، والشعب الفارسي ، والشعب الروسي ، ويقال أيضاً الشعب الجزائري ، والشعب السوري ، بل قد يقال الشعب الدمشقي والبغدادي .

الأمة :

إذا عملت عوامل التوحيد والصهر والانسجام في شعب من الشعوب كالاشتراك في اللغة والحياة المشتركة الطويلة أي التاريخ والثقافة

والمعتقدات والمبادىء والأفكار والعادات والأخلاق ، تألف منه وحدة اجتماعية حية نسميها أمة ، والحالة الطبيعية الغالبة أن يكون لهذه الأمة كيان سياسي واحد يحفظها أي أن تؤلف دولة .

إن الخاصة الأساسية المميزة للأمة هي وجود رغبة عامة في الحياة المشتركة أي تحقق الانسجام بين أفرادها حتى يتكون من المجتمع وحدة حيوية يمكن أن نسميها أمة .

إن وجود عدد كبير من البشر يعيشون في أرض واحدة أو بلد واحد لا يجعل منهم أمة ولا مجتمعاً يشعر بوحدته وتميزه من غيره إذا لم تؤلف بينهم عوامل مشتركة عديدة مادية ومعنوية ، وإذا لم توجد هذه العوامل المقربة الموحدة كان بين أفراد هذا المجتمع وكتله وأجزائه تباعد وتنافر ولو سكنوا أرضاً واحدة وتكلموا بلسان واحد وانتسبوا إلى أصل واحد .

ولكن تحقق الانسجام بين أفراد المجتمع وأجزائه وتأليفه لما سميناه وحدة اجتماعية حية يمكن أن يتم على مستويات مختلفة أو في مراحل عديدة من التطور البشري الذي وصفناه آنفاً فيمكن أن يتم

في قبيلة كبيرة بدافع الارتباط النسبي الدموي وفي القومية الواحدة أو الشعب الواحد مجموعة من العوامل المادية والمعنوية وفي نطاق اجتماعي أوسع من القومية كأن تؤلف مجموعة من الشعوب كتلة حضارية عقائدية واحدة سواء جمعتها دولة واحدة أو اتحاد دول أو لم تجمعها ، وذلك بأن تتحقق الرغبة بين أبناء هذه الشعوب في الحياة المشتركة ويتحقق الانسجام بينها بسبب الأخذ بفلسفة واحدة ومفاهيم واحدة في الحياة وبالتالي بنظم وعادات واحدة ، ويمكن أن نضرب على ذلك مثالاً من التاريخ الحديث والقديم ، فمجموعة الشعوب التي تعيش في اطار الاتحاد السوفييتي هي قوميات عديدة ، فاذا كانت الشيوعية قد تغلغلت فيها ونفذت إلى أعماقها حتى صهرتها في بوتقة عقيدتها ومفاهيمها ونظمها حتى أصبحت تصدر كلها في تفكيرها وعواطفها وحركاتها الاجتماعية والسياسية بوحي من هذه العقيدة وبدافع منها فقد تم الانسجام والرغبة في الحياة المشتركة وتم كذلك تأليف وحدة اجتماعية حية وأمة . وكذلك الشعوب التي دانت بالاسلام في عصره الأول فقد أخذت بفلسفة واحدة في الحياة لها مفاهيمها واتجاهاتها فعملت متعاونة على إنشاء حضارة واحدة هي

الحضارة الاسلامية ساهم فيها كل منها باتتاجه حسب قدرته وطاقته وإمكانياته وكانت لهم اتجاهات واحدة في الحياة واعتقدوا بقيم واحدة في الحياة واتخذوا من العادات والانظمة الاجتماعية مايتناسب مع تلك القيم والمبادىء ويتفرع عنها ، وكانت لهم كذلك ثقافة واحدة أساسها القرآن الكريم والتراث النبوي الشريف أو السنة وما أضيف اليها من فهوم ونظريات للأجيال المتعاقبة ومن الثقافات الأجنبية المقتبسة ، وكانت لغةهذه الثقافة اللغة العربية ، وجمعتهم كذلك في بعض الفترات التاريخية دولة واحدة ، وكان لهم حتى في حال انقسامهم الى دول تاريخ مشترك .

ألا يحق لنا بعد هذا كله أن نسمي هذه الكتلة الحضارية التي تؤلف وحدة اجتماعية منسجمة في ذلك العصر أمة ولو كانت مؤلفة من عدة شعوب ؟

إن في تثبيت مدلول الأمة في شكل من أشكال تطور المجتمعات البشرية جموداً في الفكر ومحاولة لتثبيت حقيقة حية متحركة متطورة ونظرة إلى الحياة الاجتماعية على أساس ركودها وسكونها.

ويتبين مما تقدم أن بين القومية والأمة تداخلاً واختلافاً في آن

واحد فالقومية يمكن أن تؤلف أمة إذا تم لها النضج وتجاوزت المرحلة الابتدائية وتحقق فيها الانسجام ، كما يمكن أن تؤلف أكثر من أمة إذا انقسمت إلى قسمين مختلفين في فلسفة الحياة ومفاهيمها اختلافاً لا التقاء معه .

فالهند في الأصل قومية واحدة وجنس واحد ، ولكنها بسبب اختلاف النظرة إلى الحياة بين الهنادك والمسلمين اختلافاً كلياً يصعب معه الالتقاء لاتجاه كل من الفريقين إلى إنشاء حياة وحضارة تختلف عن حياة الآخرين في مبادئها ومفاهيمها وأسسها في العادات الاجتماعية والمفاهيم الأخلاقية ، فكان انقسام الهند وهي قومية واحدة إلى وحدتين اجتماعيتين ، أي إلى أمتين أمراً طبيعياً ، ومما يلاحظ أن الهند والباكستان تتجهان اتجاهين مختلفين في اللغة وسائر مقومات الحياة ، فبينما تعتبر الباكستان الفتح العربي تحريراً للهند من وثنيتها وجاهليتها وتقدس أبطال هذا التحرير ، ترى الهند فيه استيلاء واستعماراً ، وتقدس أبطالها الهندوكيين الذين تشتمل عليهم أساطيرها القديمة وخرافاتها الوثنية وتاريخها القديم ، ولذلك تطرد الهند الحروف العربية والكلمات العربية من لغتها وتستبدل بها

الحروف والألفاظ السنسكريتية ، في حين أن الباكستان تحتفظ بالحروف العربية وتستزيد من الألفاظ العربية وتراودها فكرة اتخاذ العربية لغة رسمية ، ويدعو إلى ذلك فريق من رجالها .

وهذا كله يجعلنا نعتقد اعتقاداً جازماً أن الهند والباكستان ستنتهيان إلى تكوين أمتين مختلفتين متميزتين ولو انهما كانتا شعباً واحداً وقومية واحدة .

عوامل تكوين الامة

إن وحدة المشاعر التي تجمع أبناء الأمة الواحدة والشعور بالتضامن والرغبة في الحياة المشتركة إنما تكون نتيجة لأسباب وعوامل أثرت في تكوينها وإيجاد هذه الوحدة والاشتراك والتضامن والتميز من غيرها ، وهي نفسها العوامل التي تكون سبباً في استمرار الوحدة والارتباط فيما بين أبناء الأمة الواحدة .

ومن المهم قبل أن نبسط هذه العوامل أن نشير إلى أمر هام جداً في هذا الموضوع : ذلك أن هذه العوامل يختلف تأثيرها قوة وضعفاً بحسب المرحلة التاريخية التي تمر بها الأمة في التطور البشري فقد كان تأثير الأرض وطبيعتها في بداية حياة البشر قوياً وعميقاً ولكن هذا التأثير يأخذ في الضعف كلما تحرر الانسان من سلطان الطبيعة وغدا هو الذي يغير الأرض ويقاوم تأثيرها ويحول دون عوارضها المختلفة ، وكذلك الدم والجنس ووحدة الأصل فان هذا العامل كان له تأثير قوي في تضامن الذين يربط بينهم الدم والجنس ، وكان هذا التضامن

شديداً يصل إلى حد العصبية في داخل القبيلة ثم في داخل القوم الواحد الذين ينتمون أو يعتقدون أنهم ينتمون إلى أصل واحد ، ولكن هذه العصبية الدموية يخف تأثيرها كلما تقدمت الأمة ويحل محلها تدريجياً عوامل معنوية أخرى كالثقافة والمعتقدات والدين والمبادىء الخلقية والتقاليد والعادات . إن هذه النظرية التطورية هي التي يهملها أكثر الباحثين أو ينظرون إلى العوامل المؤثرة في الامة نظرة جامدة ثابتة ويناقشون هذه العوامل ويوازنون بينها من حيث القوة والضعف ويضربون لذلك أمثلة متنوعة من مراحل تاريخية متفاوتة فيضلون بذلك السبيل إلى الحقيقة .

إن الاتجاه في تطور العوامل المؤثرة في تكوين الأمة والربط بين أفرادها من حيث القوة والضعف آخذ بالانتقال من العوامل المادية والأرض والجنس أو العرق إلى العوامل المعنوية كالثقافة والمعتقدات الفكرية والدينية كلما ارتقت الحياة البشرية وتقدمت وتطورت مع الزمن . ولنأخذ في استعراض هذه العوامل ومناقشتها :

١ — الارض :

إن واقع الحياة أن لكل شعب من الشعوب أرضاً نشأ وترعرع

فيها واستثمرها وأقام عليها حياته وحضارته فأحبها وتأثر في طراز حياته بطبيعتها ، وكانت حياته الأولى تفاعلاً فيما بينه وبين الأرض، ولذلك فان شكل الأرض وطبيعتها وموقعها وحدودها ومواردها تؤثر في أسلوب المعيشة التي يحياها السكان وفي نوع فعاليتهم من زراعية أو صناعية أو تجارية ، وهي كذلك التي تعزل الشعب الذي يسكنها عن غيره من الشعوب بحدودها الفاصلة أو تخلطه بحدودها المفتوحة وبما يحيط بها من بحار أو يخترقها من أنهار ، إن ذلك كله يؤثر في تكوين طبيعة الشعب ومزاجه وصفاته وخصائصه في بداية تكوينه ، فيكون مجداً أو كسولاً وذكياً أو بليداً ومغامراً أو مخلداً إلى الأرض ، سريع الانفعال أو هادئاً ، ميالاً إلى العمل اليدوي أو الفكري ، ضيق الخيال أو واسعه ، منقبضاً منطوياً على نفسه أو منبسطاً مفتوح الأفق إلى غير ذلك من الطباع التي تكونها الحياة بأسلوبها وطريقتها وبتفاعل الانسان مع الطبيعة واختياره للمعيشة أسلوباً خاصاً وطريقاً محدداً واستمرار ذلك قروناً متطاولة.

لا شك أن الارض ذات تأثير في الطور الاول لحياة الشعوب في تكوين طباع متشابهة وصفات متقاربة في سكانها وبذلك تكون

الوعاء الجامع لهم الذي ينضج طباعهم وخلقهم ،ولكن تأثيرها ينقص بالتدريج كلما نمت الحياة الانسانية فوقها وعملت يد الانسان وعقله في تكييفها وفي رد عوامل الطبيعة وحماية نفسه منهـا ويتحرر بالتدريج من تأثير الارض ، وقد كان تطور المواصلات على اختلاف أنواعها في داخل الشعوب وفيما بينها ونمو الحيـاة الفكرية والاديان العـالمية سبباً في سلب الارض ما كان لها على الانسان من سلطان ونفوذ ولهذا لم تعد الارض إلا قاعدة ومسكناً للأمة وعنصراً مادياً لابد منه دون أن يكون السبب الجامع لابناء الامة والرابط الاساسي فيما بينهم ولا العامل الاقوى في حياتهم ، بل ان الارض انقلبت إلى عنصر معنوي يتجلى في حب الارض أو الوطن والحنين اليها والدفاع عنها على اعتبار انها مثوى ذلك الشعب الذي يعيش فيه ومثوى الآباء والاجداد والارض التي قام عليها تاريخ الامة وحضارتها والتي تشيد عليهـا في الحاضر حياتها وحضارتها .

ويحضرنا في هذه المناسبة الحديث القائل (من بدا جفا) أي من عاش في البادية ظهر الجفاء في طبعه ، وتقدير الله تعالى في أن يعيش بنو إسرائيل أربعين سنة أي جيلاً كاملاً في الصحراء يتيهون فيها . كما

يجدر بنا أن نذكر قول الرسول ﷺ حين غادر مكة مهاجراً : (والله إنك لأحب البلاد إليَّ) ، واقتران حب الارض في القرآن بحب النفس « اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم » واقترانها في موضع آخر بالدين « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم » وكل ذلك يدل على تأثير الارض وعلى أن فطرة الانسان التي فطره الله عليها حب الوطن والديار ولكن لهذا الحب حدوداً يجب أن لايتجاوزها لان فوق هذا الحب حب الحق والعدل والدين والعقيدة ، وقديماً هجر العربي أرضه إيثاراً للكرامة والعز وهاجر المسلم منها فراراً بدينه وفراراً من الظلم حين لا يستطيع الحفاظ على دينه ودفع الظلم عن نفسه.

٢ — الجنس والاصل :

إن الجماعات البشرية من شعوب وأمم ترجع في تاريخ تكونها إلى استقرار عشيرة أو قبيلة في أرض معينة ثم امتزاج عدد من القبائل المتقاربة التي ترجع إلى أصل واحد وأرومة واحدة في شعب واحد ، وقد كان ذلك دوماً نقطة الانطلاق إلى تكون القوميات

والامم ولهذا كان في كل شعب أو أمة عرق غالب وقد يكون هذا العرق مزيجاً من أعراق متعددة تلاقت وامتزجت وكونت عرقاً واحداً .

ووحدة الحياة فوق أرض واحدة والاشتراك في الاقليم والمناخ وفي طريقة التفاعل مع البيئة الطبيعية وفي طريقة المعيشة فيها والتصرف في آفاقها وبذل ضروب معينة من النشاط وسلوك طرق للحياة والارتزاق والعمل والكسب والتغذي والتنقل تكون في كل جنس من البشر صفات جسمية في لون البشرة وتقاطيع الوجه وشكل الرأس وغير ذلك من الصفات الظاهرة والخفية كما تكون صفات معنوية مشتركة أو طبائع وأمزجة ، فقد عرف العربي بالذكاء والفراسة والانكليزى بالثبات والهدوء والفرنسي بالحماسة والانفعال والالماني بالنظام والهندي بالخيال والزهد ، ولكن اختلاط الشعوب واتصال الأمم بالهجرات الكثيرة الفردية والجماعية وتمازجها بسبب الاشتراك في حضارة واحدة أو دين واحد جعل صفاء الجنس ونقاوة الأصل أمراً مشكوكاً فيه ، ولا سيما أن التطور الحضاري في العادات وفي الصناعة واختلاط الشعوب بعضها ببعض غير

الكثير من الصفات الجسمية والخلقية الخاصة بكل شعب من الشعوب .

قد تكون رابطة الجنس أي الاشتراك في الأصل والدم هي الرابطة القوية في المراحل الأولى من تكون الشعوب والأقوام حين كان الاعتقاد بوحدة الأصل الدافع الاقوى إلى التقارب والتضامن والتعاون والمحبة بل العصبية ، والاعتقاد باختلافه باعثاً على النفرة والجفوة ، ولكن المشاهد في الواقع أن الامم والشعوب لا تمكث طويلاً في هذه المرحلة بل تمر بها وتجتازها إلى غيرها ، فليست الرابطة في هذا العصر بين أبناء انكلترا أو المانيا أو أمريكا أو روسيا مثلاً هي كونهم ينتمون إلى أصل واحد وجنس واحد ، وإنما هي انتماؤهم إلى حياة مشتركة كثيرة العناصر واشتراكهم في عوامل كثيرة أهمها انتماؤهم إلى ثقافة واحدة ولغة واحدة وتاريخ واحد ، وليست وحدة الجنس إلا عاملاً من جملة هذه العوامل يقويها ويعضدها.

إن الاعتماد على وحدة الجنس واعتباره الأساس الاول لقيام الامة الواحدة لم تأخذ به إلا بعض الشعوب في فترات خاصة من تاريخها وقد ولد شعوراً بالاستعلاء واقترن بحب التغلب والسيطرة على الشعوب

الاخرى وبروح الاعتداء والحروب وإثارة روح الحقد والبغضاء وأوجد بين الشعوب جواً من الكره والجفاء فكان بذلك منافياً للروح الانسانية ومعوقاً عن التقاء الشعوب على صعيد إنساني مشترك .

إن التطور الداخلي في كل أمة كان يتجه دوماً نحو إحلال الرابطة المعنوية الروحية المستندة إلى الثقافة والمدنية محل الرابطة الدموية فالثقافة السكسونية والحضارة الانكليزية بعاداتها وتقاليدها وثقافتها ومذهبها البروتستنتي هي التي تؤلف الرابطة بين أبناء انكلترا . وكذلك العربي فقد كان انتماؤه إلى النسب العربي هو الذي يربطه بأبناء العربية وكلما كان النسب أقرب كانت الرابطة أقوى وأشد ، ولكنه أصبح بعد الاسلام يرتبط بأبناء جلدته برابطة الإيمان برسالة الاسلام وبالثقافة التي نشأت بعد الاسلام وخاصة من مصادره وينابيعه وتاريخه وما تضمنه من عقائد ومبادىء خلقية ونظم تشريعية وما تولد عن الاسلام من بطولات وفتوحات وصلات وعادات . وكلما كان القرب من هذه المبادىء وتلك الحضارة أشد والإيمان بها أقوى والحب لها أعمق والاستمساك بها أوثق كانت تلك الرابطة أقوى .

والخلاصة ان العرق أو الجنس إذا كان ذا تأثير في تكوين الشعوب في مرحلة قديمة من مراحل التاريخ وإذا كان رابطة بين أبناء الشعب الواحد والقومية الواحدة في طور من أطوار التاريخ حين كانت ضرورة حيوية للتماسك والتضامن والتعاون في مضمار الحياة فليس الأمر كذلك حين تتجاوز هذه الشعوب تلك المرحلة الأولى من تاريخها وتتعدى طوراً معيناً من أدوار الحضارة ، وإن كان هذا لا يعني أن ينعدم تأثير العرق ولا أن ينعدم الشعور بالقربى لأنه أشبه بشعور الانتماء إلى أسرة واحدة الذي هو شعور فطري طبيعي ولكنه كشعور القرابة في الاسرة انتقل إلى الدرجة الثانية أو دون ذلك لأن شعوراً آخر تقدمه ورابطة أخرى استعلت ، تلك هي رابطة الانتماء إلى ثقافة تلك الأمة وحضارتها وعاداتها وقيمها ومفاهيمها .

ولو نظرنا إلى العرب في الحاضر لوجدنا أن هذه الجماعة البشرية التي تسكن الوطن العربي من العراق إلى أقصى المغرب ومن بلاد الشام إلى اليمن وتتكلم لغة واحدة يرجع أكثرها إلى أصول عربية تتفاوت في القدم وبعضها الآخر قد اندمج مع العرب بالاختلاط والتزاوج وباللغة والثقافة والدين حتى غدوا جميعاً يشعرون أنهم عرب ويصفون أنفسهم بالعربية .

٣ — اللغة :

يلاحظ أن انقسام البشرية إلى شعوب يقابله انقسامها إلى لغات وان الغالب أن لكل شعب لغة مشتركة تميزه من غيره من الشعوب. فالعرب والانكليز والفرنسيون والألمان والاسبان والأتراك والفرس وغيرهم من الشعوب كذلك لكل منهم لغته الخاصة التي تجمع بين أبنائه . ولهذه القاعدة شذوذ في أمثلة محدودة كاشتراك شعبين مختلفين في لغة واحدة كالانكليز والاميركان ، وكالاسبان وبعض دول اميركا الجنوبية ، وكاختلاف اللغة في شعب واحد كويسرا والهند والصين .

إن المشاهد في الحاضر والماضي أن الاشتراك في اللغة — ونعني باللغة اللغة الطبيعية لغة الأب والأم التي ينشأ الانسان عليها ويتحدث بها — إن هذا الاشتراك يولد في المتحدثين بها شعوراً قوياً بالقربى والارتباط بالجماعة .

إن اللغة هي المدرسة التي يتربى فيها أبناء الشعب الواحد فيتلقون عن طريقها أفكارهم فتطبعهم بطابعها سواء في ذلك المثقفون بما يقرأون من آدابها في شعرها ونثرها أو عامة الناس بما يسمعون من

عباراتها وقصصها وأناشيدها . فالعربي ينطبع في عقله وتفكيره ومشاعره ما يسمعه منذ طفولته من آيات القرآن وبليغ كلام العرب من شعر البحتري والمتنبي وشوقي وحافظ ومن آثار الأدباء من القدماء المحدثين وما يقرأ من كتب وصحف ومجلات وما يسمع من محاضرات وإذاعات وما يصل إلى مسامعه في المجالس والندوات.

إن اللغة هي التي تكون الأفكار المشتركة والمشاعر المتشابهة فتوجد في الأمة عقلية واحدة أو متشابهة وتميزها عن غيرها من الأمم .

وإنك لتكاد تجد في كل لغة في جرس حروفها ونغمات كلامها وفي أسلوب نظمها للكلام وتركيبها للجمل صورة من صفات أصحابها وخصائصهم . وإنك لتجد في مفردات اللغة نظرة أصحابها إلى الوجود وطريقتهم في تصنيفها وتقسيمها وتكاد تتبين من خلالها ملامح شخصيتهم ومعالم تفكيرهم وعقليتهم وبعض طبائعهم وعاداتهم. وتحكي كذلك تعابير اللغة ومجازاتها واستعاراتها بعض تلك الصفات والملامح .

ولهذا كان اعتياد التحدث بلغة من اللغات طريقاً للتأثر بطباع

أهل تلك اللغة وعاداتهم وأخلاقهم وتفكيرهم واتخاذ الانسان لتلك اللغة لغة له هو انغماس وانصهار في حياة أهلها وتجنس بجنسيتهم وارتباط بحضارتهم .

قال ابن تيمية : (اعلم ان اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومشابهتهم تزيد في العقل والدين والخلق . وأيضاً فان نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فان فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية)[1] .

والى هذا المعنى نفسه أشار رسول الله ﷺ ، فقد جاء قيس بن مطاطة إلى حلقة فيها صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي ، فقال هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء ؟ فقام معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه ثم أتى به النبي ﷺ فأخبره بما قاله فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى دخل المسجد ثم نودي إلى الصلاة جامعة فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، أيها

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٢٠٧

الناس إن الرب رب واحد والأب أب واحد والدين دين واحد وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم إنما هي لسان فمن تكلم العربية فهو عربي » .

قال ابن تيمية بعد ان أورد الحديث : هذا الحديث ضعيف لكن معناه ليس ببعيد[٢] وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (من تكلم بالعربية فهو عربي ومن أدرك له أبوان في الاسلام فهو عربي) .

ولهذا السبب نفسه تعني الامم في نهضاتها بلغتها فتحييها وتهذبها وتحررها من الدخيل وتعتز بها وتعتبر الحفاظ عليها كالحفاظ على أرضها وكيانها وتراثها ، وامتداد نفوذ الامم والشعوب يقترن كذلك بانتشار لغتها وثقافتها .

إن هذه الحجج التي قدمناها صحيحة مقبولة ، ولكننا لو تعمقنا في نظرتنا إلى اللغة وما تحدثه من تلك الآثار لوجدنا أنها إنما تؤدي تلك الوظيفة لما تحمل من ثقافة وأفكار ومفاهيم ومبادىء ومعتقدات

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٦٩

وعواطف لا لمجرد كونها أصواتاً مجموعة أو حروفاً مكتوبة. فليست اللغة إلا أداة لحمل الافكار وقالباً لها ووسيلة لنقلها ، فيكون الأثر الحقيقي إنما هو لمضمون اللغة . والحقيقة أن الذي يجمع أفراد الامة حين تجمعهم اللغة وتوحد بينهم هو ما تحتويه تلك اللغة في آثارها الفكرية والادبية والفنية من أفكار ونظرات ومفاهيم ومبادىء وما يتسرب من ذلك إلى الناس في أحاديثهم في مجالسهم وندواتهم . والدليل على ذلك أن بعض الناس قد ينسون لغتهم الاصلية في أحوال خاصة كحالة بعض الجزائريين في عهد الاستعمار الفرنسي وهم مع ذلك لم ينسلخوا عن أُمتهم بسبب احتفاظهم بعقائدها ومشاعرها التي قد تكون انتقلت اليهم عن طريق اللغة الفرنسية من أبناء أُمتهم من أهل الجزائر العرب المسلمين . ومن الادلة على ذلك أيضاً أن بعض الاقليات القومية التي تعيش في أُمة تختلف عنها عقيدة وثقافة لا تجعلها معرفتها بلغة تلك الامة وإجادتها لها جزأ من تلك الامة كاليونانيين الذين نشأوا في مصر والأرمن الذين تربوا في سورية ولو نسوا لغتهم الأصلية وسرعان ما يندمج في أُمة من الأمم من يشترك معها في مبادئها وعقائدها ومثلها ولو كان جاهلاً للغتها في بادىء الأمر كالعرب

الحضارمة الذين هاجروا إلى الملايو واندنوسيا، وكالهنود والتركستانيين والاندنوسيين الذين استوطنوا الحجاز.

إن وحدة اللغة متحقق في البلاد العربية ذلك أن خلود القرآن وبقاءه محفوظاً وإقبال العرب عليه وحرصهم على تعلمه جعل اللغة العربية الفصحى هي الأصل الذي يرجعون اليه ولولا ذلك لنشأت لغات عديدة بسبب تعدد اللهجات في الاقطار العربية. ولو أن تلك اللهجات ثبتت وتطورت لانتهت إلى لغات متباعدة كما حصل للغة اللاتينية في إيطاليا وفرانسا وإسبانيا. ولكن العرب كانوا يرجعون دوماً إلى اللغة الفصحى التي ثبتها القرآن الكريم، ويعتبرون الانحراف عنها لى اللهجات الاقليمية وإلى العامية انحرافاً في العقيدة والدين وابتعاداً عن القرآن. وأعان على ذلك ما في اللغة العربية من مرونة وقدرة على الوفاء بحاجات الحياة المختلفة من علمية وعملية، وذلك ماجعل العرب يرتبطون فيما بينهم عن طريق اللغة العربية بما حملته هذه اللغة من ثقافة خلال قرون طويلة.

ولهذا السبب نفسه كانت محاولات الاستعمار والشعوبية كليهما متجهة نحو إضعاف اللغة العربية وإحلال اللهجات العامية محلها، وقد

صرفوا جهداً كبيراً في دراسة اللهجات العامية الاقليمية . وكذلك عمل الذين اتخذوا الاقليمية من أصحاب النزعة الفرعونية والقومية السورية وباؤا في مسعاهم هذا الذي أرادوا به محاربة العربية والاسلام معاً بالخيبة والخذلان .

٤ — الثقافة :

يراد بالثقافة ذلك الجو الفكري والعاطفي الذي يعيش فيه أبناء الثقافة الواحدة والذي ينشأ من المعلومات النظرية التي يتلقاها المواطنون من دراستهم المدرسية وغير المدرسية والعملية التي يتلقونها من الحياة ، وما يتولد عن ذلك من عادات وتقاليد .

إن قوام الثقافة ليس في العلوم المحضة كالرياضيات والفيزياء لان هذه العلوم لا تختلف من أُمة إلى أُمة فهي مشاعة بين الناس ، ولا تختلف معادلات الكيمياء ولا نظريات الهندسة من شعب إلى آخر إلا من ناحية اتساع العلم والبحث العلمي وارتفاع المستوى العلمي . ولكن الجانب الذي يختلف من أمة إلى أمة وله في كل منها خصائص ومميزات وألوان واتجاهات هو الجانب المعنوي من الثقافة والذي

يظهر في الادب والفلسفة والدين والتاريخ والفن . إن هذا الجانب من الثقافة هو الذي يكون في كل أمة اتجاهاتها الفكرية ومفاهيمها ومثلها العليا ومبادئها وقيمها ومقاييس الخير والشر عندها ومشاعرها وعواطفها ونفسيتها . وهو الذي يجعل منها أمة إنسانية مسالمة أو أنانية معتدية وعملية إيجابية نشيطة أو خيالية راكدة أو سلبية .وهو الذي يجعلها تتجه في الحياة اتجاهاً يغلب فيه جانب العمل والانتاج والكسب أو جانب الفن والخيال أو جانب الاخلاق والدين والخدمة الاجتماعية أو تتوازن فيه الجوانب كلها أو بعضها .

فالثقافة الفرنسية مثلاً بمصادرها اليونانية والمسيحية وما أُضيف اليها منذ عهد النهضة حتى العصر الحاضر من مذاهب فلسفية وآثار أدبية وثورات سياسية وفكرية وصفحات تاريخية هي التي تكون عقلية الفرنسي ونفسيته وأفكاره وعواطفه . وهي تختلف عن الثقافة الالمانية والانكليزية وإن كانت تتفق معها في بعض الجوانب. فلكل من هذه الثقافات طابعه الخاص في الفكر والفلسفة والأدب والفن وحوادث التاريخ ومقاييسه وبالتالي تختلف في بعض المبادىء والمفاهيم والمثل والاتجاهات والعواطف . ولو نظرنا إلى الثقافة العربية لوجدناها

تختلف عن هذه الثقافات الثلاث اختلافاً كبيراً لما بينها وبينها من خلاف في أسس الثقافة ومذاهب الفكر وفلسفة الحياة ومبادىء الأخلاق وصفحات التاريخ وصياغة الحضارة .

وإن تقارب الثقافات واشتراكها في جوانب قليلة أو كثيرة يقترن دوماً بتقارب القوميات والأمم واشتراكها في جوانب قليلة أو كثيرة في الحياة ويسهل تعاونها في ميدان أو أكثر من ميادين الحياة .

إن البلاد الشيوعية على اختلاف قومياتها تشترك حالياً في ثقافتها الأساسية ومن السهل أن تتعاون بسبب ذلك. ومثلها الشعوب الاسلامية حين كانت ثقافتها واحدة أو متشابهة فانها كانت تتعاون أوثق التعاون ولا سيما في المجال الشعبي والاجتماعي .

إن المهم في الثقافة التي تكون أبناء الأمة الواحدة وتوحدهم وتصل مابينهم بصلة قوية عميقة هو نوعية الثقافة والعناصر التي تتألف منها لا المستوى الثقافي . فليس الناس سواء في درجة ثقافتهم وفي مستوى هذه الثقافة وذلك في أي أمة أو شعب وليس ذلك بضائر وحدتهم ولا منتقص تماسكهم الداخلي بشيء . أما اختلاف نوعية الثقافة

فانه إذا قوي واشتد وكان عاماً في طبقة كبيرة من الناس يحدث خللاً ويؤدي إلى شيء من التفكك ويسبب على كل حال أزمة اجتماعية .

إن للعرب في شتى أقطارهم ثقافة مشتركة تتألف عناصرها الأساسية من الأدب العربي في الجاهلية والاسلام ومن التراث الاسلامي من القرآن الكريم والحديث الشريف وما نشأ عنهما من مفاهيم عقائدية ونظرات ومبادىء خلقية سواء تجلى ذلك في ثقافة للخواص في علم الكلام والتصوف والفقه والفلسفة أو في ثقافة شعبية شائعة عامة . وتتألف كذلك من التاريخ ولا سيما تاريخ الاسلام الذي يؤلف أضخم ما في التاريخ العربي وأوسع ما فيه من آفاق والذي هو الاطار الزماني والمكاني للحضارة الاسلامية التي أنشأها العرب متعاونين مع الشعوب التي استجابت لدعوتهم الاسلامية . وهذا التاريخ يتألف من حوادث وبطولات وفتوحات ومعالم حضارة ورجال أعلام في كل ميدان من ميادين الحياة . ويضاف أخيراً إلى هذه العناصر كلها عنصر جديد هو ما دخل الثقافة العربية في العصر الحاضر من ثقافة مستقاة من الأمم الغربية المعاصرة وحضارتها .

إن الثقافة العربية في العصر الحاضر تتألف من مجموع هذه العناصر وهي بالجملة مشتركة بين مختلف الأقطار العربية على نسب متفاوتة . وهذا التفاوت يختلف باختلاف البيئات في كل بلد عربي أكثر من أن يختلف بحسب البلدان والأقطار .

وإن مما لاشك فيه أن عنصر الثقافة الأجنبية الذي دخل في الثقافة العربية إذا قوي تياره واتسع نطاقه وأخذ كما هو من غير مقياس ولا ضابط ولم يتمثل تمثلاً بمقياس الثقافة العربية يسبب خطراً على كيان الأمة العربية ويمهد السبيل لإذابتها في غيرها . ولست أعني هنا بالثقافة الأجنبية العلوم المادية والعملية فانها كما قلنا سابقاً لاتختلف من أمة إلى أخرى ، ولكني أعني المذاهب الفكرية والفلسفية والاجتماعية والأدبية الفنية وسائر العناصر الحضارية التوجيهية في الثقافة .ولا شك كذلك أن الاطلاع على هذه الثقافة مفيد ونافع إذا قام به فئة من الخاصة الذين لهم من قوة ثقافتهم العربية الأصيلة وقوة شخصيتهم ما يحول بينهم وبين الذوبان في تلك الثقافات الأجنبية .

ولو انتشر تيار الثقافات الشيوعية والوجودية وغيرها وطما سيله

وطغى على ثقافتنا العربية وتراثنا الاسلامي وحملته الينا روافد من مختلف البلدان الأوربية والاميركية لنشأ جيل عربي الوجه واللسان ، ولكنه أعجمي الفكر والنفس يشعر بالتبعية لغيره وباحتقار الذات .

إن الثقافة في كل أمة تتجدد وتنمو على الدوام فتضيف طريفها إلى تليدها ومبتدعاتها إلى تقاليدها ولكنها تسير في ذلك على طريقتها وأسلوبها . وإذا كان الجديد مقتبساً تمثلته تمثلاً تاماً حتى يصبح قطعة مجانسة لثقافتها حتى لا يكون في حياتها انقطاع ولا فجوات .

. . .

ونعود بعد ما قدمنا من بيان أثر الثقافة في تكوين الأمم والربط بين أفرادها وتوحيد عقليتها إلى القاء نظرة فاحصة على طبيعة الثقافة نفسها لمعرفة جوهرها والتفتيش عن سبب إحداثها مثل هذه الآثار التي تحدثنا عنها .

لقد قلنا في بدء كلامنا أن الجانب الذي تتميز به الامم من الثقافة والذي يكوّن عقلية الامة ويوحده ويربط بذلك بين أبنائها ويوجد

بينهم شعوراً بالانتماء إلى حضارة واحدة وروح واحدة هو ذلك الجانب المعنوي من الثقافة الذى يتجلى في تاريخها وأدبها ودينها وتقاليدها الفكرية والعملية . ولو نظرنا في هذا الجانب من الثقافة لوجدنا أن العنصر الاساسي فيه والمشترك بين أجزائه ومجالاته المختلفة هو ما يتضمنه من فلسفة في الحياة ومن نظرات إلى الوجود ومن مفاهيم واتجاهات ومن مبادىء وقيم . فالثقافة الفرنسية مثلاً مزيج معين من المذاهب الفكرية والدينية ومن القيم التي تقاس بها الحياة الماضية والحاضرة ومن المبادىء والمفاهيم الاخلاقية في الحياة. والثقافة الالمانية هي مزيج من نوع آخر لمذاهب فكرية ودينية واتجاهات اجتماعية ومبادىء وقيم أخلاقية. وهكذا الثقافة الروسية والاميركية. وعلى هذا فالعنصر الاساسي في الثقافة هو فلسفتها ومفاهيمها ومعتقداتها وأفكارها .

٥ — التاريخ :

إن وحدة التاريخ وحدة في (الزمان) كما أن وحدة الارض وحدة في (المكان) فالتاريخ بحوادثه خلال العصور ولاسيما الكبيرة

ذات الاثر وعهوده المختلفة ومعاركه الحربية سواء أكانت نصراً أم هزيمة ،بأفراحه وأتراحه ، بآماله وآلامه ، بحقائقه وأساطيره يكوّن في كل شعب جزءاً كبيراً من تفكيره وشعوره بما يحدثه في النفوس من آثار وفي العقول من تفكير وفي الحياة من اتجاهات. وهو مجموعة من التجارب التي عركت الشعب وتفاعل معها فوحدته وجعلت له في الحياة موقفاً واحداً .

إن حوادث التاريخ وتجاربه وأيامه يختلف من شعب إلى شعب ولذلك تختلف الامم في تكوينها النفسي الناشيء عن التاريخ . والتاريخ بالنسبة لكل أمة مجموعة ذكرياتها الحلوة والمرة وصفحاتها الجميلة والقبيحة ، وهو كذلك ذاكرتها . ويتصل التاريخ الماضي بالحاضر ثم ينقلب الحاضر ماضياً بل ان الحاضر هو الجزء الاخير من هذا الماضي وهو متأثر كل التأثر بالماضي .

ولما كان تاريخ الامة هو حياتها الماضية وتجاربها الخاصة فان الامم في نهضاتها تهتم بدراسة تاريخها لتتعرف إلى نفسها وتنغمس في تاريخها لتحقق ذاتيتها ، ومن هنا كان الاعتزاز بالتاريخ اعتزازاً بالذات بالنسبة إلى الامم ، وكانت الدول المستعمرة تحاول أن تنسي

البلاد المستعمرة تاريخها لتنسيها نفسها ولتنسلخ من ذاتها وتسهل تبعيتها لها ، وحين تتحرر الشعوب من الاستعمار تقبل على تاريخها فتدرسه لتستوحي من تجاربه وتعتز بأمجاده وتتجنب أخطاءه ولتوقظ في نفوس أبنائها الشعور العميق بذاتيتها . وقد تصاب الأمم في إبان نهضتها القومية بالمغالاة في الاعتزاز بالتاريخ وتقديسه إلى حد العصبية حتى تقلب أخطاءه أمجاداً وسيئاته حسنات فتغلبها العصبية على الحق والهوى على المنطق فلكل أُمة جاهليتها ولكل شعب عهود ضلال وفساد .

وتعصب الأمم لجاهليتها وعهود ضلالها وأخطاء تاريخها ولرجالها الذين طغوا وظلموا وأفسدوا لمجرد أن ذلك جزء من تاريخها تعصب غير محمود وأنانية ممقوتة يشبه افتخار بعض الناس بماضيهم السيء في القتل والنهب والفجور . وإنما يؤخذ من التاريخ محاسنه ومفاخره وصفحاته البيض ، وأما أخطاؤه فتترك وضلاله فيصحح ويستفاد من تجاربه السيئة ، فلا يعتز بالتراث لأنه تراث قومي بل لما فيه من خير ومنفعة وإنسانية وقيم خلقية ومُثل عليا .

لقد كان في تاريخ العرب الذي سبق الاسلام حسنات وسيئات

فكان فيه من مكارم الأخلاق ما أبقاه الاسلام وأكد بقاءه ، وكان فيه من السيئات ماحاربه الاسلام وسعى إلى إزالته كالعصبية للقبيلة والثأر والوأد في بعض القبائل فرسم بذلك للعرب ولغيرهم من الأمم اتجاهات أخلاقية وإنسانية .

إن التاريخ المؤثر في حياة الأمم ليس هو التاريخ كله على الاطلاق ولكنه الجزء الحي في النفوس من ذلك التاريخ لا الجزء الذي أصبح نسياً منسياً ، فتاريخ العرب القديم الموغل في القدم ليس حياً في نفوس جمهور العرب ولا يكادون يعرفون عنه شيئاً ولا يذكرون أبطاله ، وإنما يبدأ التاريخ العربي الحي من عهد الجاهلية التي سبقت الاسلام وكان الاسلام سبباً لمعرفتها لأنه جاء للثورة عليها وتغيير أكثر ما فيها والإبقاء على ما كان فيها من الفضائل والمكارم . يعرف جمهور الشعب العربي شيئاً قليلاً عن العصر الجاهلي ويسمع بكرم حاتم وشجاعة عنترة ، ولكن أهم أجزاء التاريخ الحي في نفوس جماهير العرب وأقواها تأثيراً وأوضحها صورة في الأذهان هو الجزء الاسلامي من تاريخه ، فليس من العرب أحد لا يضع في القمة العليا من هذا التاريخ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس منهم من لا يرى

في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي عبيدة وخالد وأمثالهم نماذج إنسانية عليا ، كما يذكرون دهاء معاوية وعمرو وحزم زياد وظلم الحجاج وبطشه وعدل عمر بن عبد العزيز وزهده وترف العباسيين وعلم الشافعي ومالك وبطولة صلاح الدين وإخلاص نور الدين، وتلمع في مخيلتهم وأذهانهم صور المعارك الكبرى من بدر إلى اليرموك والقادسية إلى الحروب الصليبية إلى بلاط الشهداء في الأندلس ، وتتم في هذه المعارك الأخيرة وأبطالها من حرب الامير عبد القادر إلى ثورة الاستقلال في الجزائر ، ومن معارك عمر المختار إلى الامير عبد الكريم الخطابي . إن العرب يشعرون أن بهذا التاريخ جزء من وجودهم وأن انتصاراته انتصار للحق على الباطل سواء أكانت في داخل البلاد العربية كبدر حيث انتصرت دعوة التوحيد والحق وكالحروب الصليبية أو في الخارج كالقادسية وغيرها من معارك الفتوح ، وقد امتزج تاريخ العرب السياسي والحضاري في أبرز أقسامه وألمع صفحاته بالاسلام حتى غدا في شعور الجماهير شيئاً واحداً .

وعلى هذا الاساس الديني في تاريخ العرب تعاون العرب مع شعوب

عديدة دخلت في الاسلام والتقت معها في حضارة واحدة وارتبطت معها بذكريات تاريخية عزيزة مقدسة وحاربت معها عدواً واحداً وكونت معها كتلة سياسيه كالدولة العثمانية التي اجتمعت فيها شعوب عديدة واجهت مجتمعة الدول الاوربية التى بدأت زحفها وهجومها منذ عهد الحروب الصليبية ، وكانت هذه الدولة مبنية على مفهوم خاص هو اجتماع شعوب متعددة تحت راية الاسلام تربطها الرابطة الدينية ، وكان الحكم ينتقل من خلال التاريخ من شعب إلى آخر ومن أُسرة إلى أُخرى ولكنه حكم كانت تشترك فيه الشعوب والقوميات المختلفة في مختلف وظائف الحكم والادارة ، ومن الخطأ الفادح تسمية هذا العهد عهد استعمار لانه عهد له مفهومه الخاص ، ولم يكن استعمار شعب تركي لشعب عربي اللهم إلا في الفترة الاخيرة التي حكم فيها حزب الاتحاد والترقي بدافع من القومية التركية بعد سقوط الخلافة، فقد كان يشترك الاتراك والعرب والاكراد والجركس والالبان في وظائف الدولة من رئاسة الوزارة حتى الوظائف الادارية الصغيرة ، وما كان يكتب في السجلات المدنية وتذاكر النفوس إلا الدين ، وأما ما كان في ذلك العهد من ظلم أو فساد فذلك أمر لا علاقة له بهذا

الموضوع وظاهرة عامة لا تخص شعباً دون شعب . وكانت اللغة التركية لغة الدولة لان الرئاسة كانت فيهم وكانوا هم المتغلبين على الحكم أكثر من غيرهم ، ولكن لم تكن نظرة تلك الدولة نظرة شعب حاكم لشعب محكوم ، وإنما كانت النظرة : شعوب إسلامية متعددة يحكمها خليفة تركي ، وهي متساوية في الحقوق والواجبات . إن هذه الحال على ما كانت عليه من خير وشر تختلف اختلافاً كبيراً عن حالة العرب تحت حكم الفرنسيين أو الانكليز في عهد الاستعمار الأخير .

إن مرحلة الاستعمار الأخيرة التي اقترنت بثورات التحرر من الاستعمار وحّدت كذلك بين البلاد العربية فولدت شعوراً مشتركاً يتمم ويكمل ذلك الشعور العميق المشترك الذي ولده فيها ذلك التاريخ السابق وعهود الاسلام وحضارته وفتوحاته السامية والحربية .

ملاحظات هامة تتعلق بعنصر التاريخ :

١ — وحدة التاريخ ليست مطلقة عامة فقد تمر بعض الحوادث الجسام على بعض أجزاء الأمة الواحدة ، وقد تنقسم الأمة الواحدة

في بعض عهود التاريخ إلى أقسام لكل منها تاريخه الخاص من الوجهة التبعية السياسية أو نظام الحكم أو العلاقات الخارجية أو الحروب أو الصلات الثقافية أو غير ذلك ، فليس تاريخ الحجاز والعراق والشام ومصر واحداً في تفاصيله في قيام نظام واحد للحكم وفي الانضمام للدولة العثمانية وفي الوقوع تحت الاستعمار وفي التحرر والاستقلال وفي غير ذلك من حوادث التاريخ ولكنها مشتركة في أهم صفحات تاريخها وفي خطوطه الكبرى ولذلك نجد إلى جانب التواريخ الكبرى الجامعة لتاريخ الاسلام وشعوبه ولتاريخ العرب تواريخ خاصة باقليم واحد وقطر واحد .

٢ — يقع في تاريخ الامم وتاريخ الامة الواحدة انفصال واتصال فقد ينفصل جزء من شعب وينسلخ من تاريخ ويتصل بتاريخ آخر . فلو بقيت الاندلس ضمن حدود العروبة والاسلام لكانت متصلة بتاريخ المغرب لا بتاريخ اسبانيا ولكنها انفصلت عن هذا التاريخ الذي بقيت متصلة به مئات السنين وغدا تاريخها هو تاريخ اسبانيا .

إن الامم التي تتقارب في تواريخها أو تشترك في بعض عهود التاريخ في اتجاه واحد تتقارب في حياتها وفي حضارتها ، وكلما كان

ذلك الاشتراك أطول زمناً وأغنى بالحوادث وأكثر تداخلاً وأجمع في وجهة النظر وفي الاتجاه الحضاري كان التعاون والتقارب والتآلف أشد ، ولاسيما إذا شملت هذه الامم والشعوب وحدة ثقافية أو حضارية واحدة أو اطار حضاري واحد كالحضارة الاسلامية بالنسبة إلى الشعوب الاسلامية والثقافة الشيوعية بالنسبة إلى الشعوب الشيوعية مع الفوارق الكبيرة بين النوعين .

مناقشة وتحليل :

إذا وجدنا أن تاريخ الامة الواحدة يوحد أبناءها، وتاريخ الشعب الواحد يوحد ذلك الشعب فانه يجدر بنا أن نبحث عن السبب في ذلك وعن نوع الارتباط بين التاريخ والمجتمع .

إذا كان التاريخ مجموعة حوادث كبيرة وصغيرة تحدث وتتتابع على مشهد من جماعة بشرية معينة فهل الموحد لهم هو مرور الحوادث نفسها عليهم أم هو في الحقيقة تفاعلهم مع هذه الحوادث والاثر الذي تتركه في عقولهم وفي نفوسهم ؟ وهل تترك الحوادث آثاراً متشابهة في الجماعة ومتى يكون ذلك ؟ ألا يختلف البشر في نظرتهم إلى الحوادث التاريخية وتختلف مشاعرهم نحوها فرحاً وحزناً وانبساطاً

وانقباضاً وفي تقويمهم لها واعتبارهـا خيراً لهم أو شراً عليهم ، ومتى وكيف يتفقون في هذه النظرة وتقويمهم لها وتأثرهم بها ؟ هل ينظر الهنود — المسلمون منهم والهنادك — إلى الفتح العربي الاسلامي للهند نظرة واحدة ويقيسونه بمقياس واحد ؟ ألا يرى المسلمون فيه تحريراً لهم من الخرافة والوثنية وهداية لعقولهم وتوجيهـاً لهم نحو الخير والرقي ، ويرى فيه الهنادك تحطيماً لديانتهم القومية وحضارتهم الخاصة ؟ ألا يرى المسلمون من محمد صلوات الله عليه الهادي والمحرر الاعظم للانسانية، وفي أبي بكر وعمر وعلي وأبي عبيدة وخالد أبطالاً عظـاماً وهداة للبشرية ومحررين لها من الظـلم والعبودية والخرافة ويتخذون من تاريخ الاسلام تاريخاً لهم ومن أبطاله نماذج إنسانية صالحة للاقتداء جديرة بالتعظيم .

إن المهم في موضوع التاريخ ليس هو حوادثه نفسهـا وإنما هو نظرة الناس إلى التاريخ والقيم التي بها يقومون رجاله وحوادثه . وهذه النظرة وتلك القيم هي التي تجعله موضوع اعتزاز ومحبة أو نقمة وكراهية ومحل فرح وغبطة أو حزن وألم . وان الموحد الحقيقي لابناء الامة أو المجتمع هو تلك المقاييس التي يقاس بها التاريخ وتلك النظرة

التي ينظر بها اليه ، لانها هي التي تولد فرحاً أو ألماً مشتركاً فتوحد المشاعر وهي التي تجعل رجاله وحوادثه محل تقدير وتعظيم واعتزاز أو موضع تحقير وكراهية وبراءة . فالعنصر الحقيقي الذي يختفي وراء عنصر التاريخ هو نظرة ابناء الامة الى الحياة والقيم التي تؤمن بها والعقائد التي بها تميز الخير من الشر والفضيلة من الرذيلة والمبادىء التي تقيس بها الرجال والاعمال .

إن هذه القيم والمبادىء والنظرات والعقائد هي التي تسبب وحدة التفاعل مع حوادث التاريخ فتجعل منها حينئذ عنصراً موحداً لابناء الشعب .

إن العنصر الموحد بين أبناء المجتمع العربي هو اعتبارهم لمعركة بدر انتصاراً للحق على الباطل واعتبارهم فتوح الشام والعراق عملاً تمدينياً حضارياً محرراً من ظلم الرومان والفرس ونظرتهم إلى محمد بن عبد الله على أنه أعظم العظماء وان رسالته رسالة حق ونور وهداية ومدنية وإلى المدنية التي انتشرت بانتشارها والحضارة التي أقيمت على مبادئها على أنها حضارة يعتزون بها وينتمون اليها ويقتبسون منها ويكملون عملها ويتابعون رسالتها .

الدين والمعتقدات والأفكار :

لقد تبين لنا من مناقشة أثر اللغة والثقافة والتاريخ في تكوين الأمم أن وراء هذه العناصر الثلاثة عاملاً أساسياً هاماً مشتركاً بينها وهو الذي يجعل اللغة والثقافة والتاريخ ذات تأثير في تكوين الأمم وعوامل مقربة وروابط جامعة لأبناء الأمة الواحدة ، وهذا العامل المشترك الشامل لهذه العناصر والداخل في مضمونها والمختفي وراءها هو المفاهيم الأساسية والمعتقدات والأفكار العامة والاتجاهات الفكرية الكبرى ، أي نظرة تلك الأمة العامة إلى الحياة والعقائد المشتركة بين أبنائها أو أكثريتهم في كل عصر من عصورها أو طور من أطوارها سواء أكانت هذه المعتقدات والمفاهيم دينية أم غير دينية . والبحث في أثر الدين في تكوين الامم وفي علاقته بالقومية إنما يدخل في نطاق هذا البحث الذي هو أشمل وأعم ، والباحث في تطور المجتمعات ونشوء الامم في مختلف العصور لا بد له حين يستقرىء الحوادث وينظر إلى ماضي الامم وحاضرها من أن يطرح القضية على هذا الاساس الواسع . ذلك أن كل قومية من القوميات وكل أمة من الامم لا بد من أن يشترك أبناؤها في كل طور من أطوارها في مبادىء

ومفاهيم ونظرات إلى الحياة ومعتقدات عامة مشتركة ولا بد أن يكون بينها حد أدنى على الاقل من المبادىء الاعتقادية المشتركة سواء أخذت هذه المعتقدات والمفاهيم المشتركة شكلاً دينياً واصطبغت بصبغة الدين أم لم تكن كذلك . فاليونان القدماء كانت تجمع بينهم ديانة وثنية والعرب جمع بينهم الاسلام حين ظهر في معتقداته ونظراته إلى الحياة ، والاتحاد السوفيتي في العصر الحاضر يجمع بين كل قومية من قومياته وبين جميع قومياته عقيدة واحدة هي الشيوعية باعتبارها فلسفة وعقيدة . والاميريكيون تجمع بينهم مبادىء مشتركة تكوّن فلسفتهم ونظرتهم ، وهي مزيج من الافكار المسيحية البروتستانتية والمبادىء الديمقراطية .

والدين يدخل في نطاق العقائد التي يدين بها البشر بل هو من أقوى العقائد تأثيراً في النفوس لاتصاله بأعمق العواطف الانسانية ولما كان له في البشرية عامة ولدى مختلف الشعوب من أثر فكري وخلقي عميق وامتداد في جذور البشرية على اختلاف أجناسها وقومياتها .

ولا بد لنا لمعرفة أثر الاديان والمعتقدات عامة في تكوين الامم

من القاء نظرة تاريخيـة على الموضوع لمعرفة مختلف الاحوال بحسب العصور وعند مختلف الشعوب والامم .

١ — كانت الظاهرة العامة في بداية نشأة الشعوب أن لكل شعب دينه الخاص به فكانت الاديان قومية خاصة وكان الدين يؤلف جزءاً أساسياً من حياة كل شعب . وتختلف الشعوب باختلاف أديانها كما تختلف الأديان باختلاف الشعوب التي تدين بها حتى كأن كل دين رمز لقومية معينة فهما مقترنان متلازمان متداخلان. فالمزدكية دين الفرس واليهودية دين بني إسرائيل والبرهمية دين الهنود والكونفوشيوسية دين الصين حتى لكأن لكل قوم إلهاً يتصورون أنه خاص بهم وأنه ينصرهم دون غيرهم . وهكذا تبدو الصلة القديمة بين كل قومية ودينها القديم صلة وثيقة عميقة وبذلك كان للدين أثره القوي في تفكير الشعب الذي يدين به وفي مفاهيمه وتصوراته وفي سلوكه ومبادئه وأخلاقه . ولهذه الصلة العميقة القديمة يذهب غلاة القوميين في كل أمة في العصر الحديث إلى بعث دياناتهم القديمة ووثنياتهم وجاهلياتهم وأساطيرهم ويعمدون إلى إحيائها والإشادة بها وتجديد معالمها وتلقينها إلى الأجيال الجديدة . ومما لا شك

فيه أن في هـذا الاتجاه ضرباً من العصبية والهوى ومجافاة للحق والتفكير السديد .

٢ — ثم أتى على البشـرية حين من الدهر تواصلت فيه الشعوب وتأثر بعضها ببعض في الحضـارة والثقافة والدين وانتقلت بعض الأديان من شعب إلى شعب كانتقال البوذية من حدود الهند إلى الصين ثم إلى المغول واليابان ، وانتشار النصرانية في شعوب عديدة، وظهور الاسلام وانتشاره في أمم كثيرة أيضاً .

إن هذه الأديان التي عمَّت أكثر من قومية وانتشـرت في عدد من الشعوب أصبحت صعيداً مشتركاً بين تلك القوميات والشعوب تلتقي عليه في تفكيرها وفي مفاهيمها وفي سلوكها ومبادئها:

(أ) إن هذه الأديان العامة ظهرت في الأصل في شعب من الشعوب ثم انتقلت منه إلى غيره ، ولهذا فان صلتهـا أوثق بالشعب الذي منه كانت البداية لأنه عاش في أجوائها قبل غيره من الشعوب وكان أطول ملازمة لها وأقدر على تفهمهـا وتمثلها ، وهـذه هي حال العرب مع الاسلام ، ولكن هذه الحالة وإن كانت هي الأصل قد تشذ لأن بعض الديانات قد تنتقل إلى شعوب أخرى وتستقر فيها

وتتأصل في حين أنها قد تضعف في بلدها الأصلي ومنشئها الأول كما حدث للبوذية التي كانت في الهند وعاشت بعد ذلك في غيرها .

(ب) إن الدين الذي ينتشر في شعوب كثيرة تدين به يصبح بالنسبة إلى كل قومية من قومياتها بعد طول الزمن وعلى مر الأيام جزءاً أساسياً منها وعنصراً من عناصر تكوينها يؤثر في تفكيرها وفي عاداتها ويكوّن إحدى الروابط التي تربط بينها داخلياً .

فالاسلام بالنسبة إلى الأفغان أو الأتراك مثلاً ، وهو الدين الذي عمّ في هاتين القوميتين حتى استغرق الشعب كله ، أصبح جزءاً من كيانها وكوّن جزءاً من تاريخها وأثر في تفكيرها وفي حياتها ولو أنه ظهر في الأصل في شعب آخر ، وكذلك المسيحية الكاثوليكية بالنسبة إلى فرانسا وإيطاليا واسبانيا .

(ج) إن الدين الذي يعم قوميات عديدة فيما بينها رابطة روحية تتسع وتضيق وتقوى وتضعف بحسب سعة ذلك الدين واستيعابه لنواحي الحياة كلها أو لاقتصاره على بعضها وبحسب حاله من القوة

والضعف . إنه يوجد فيما بينها أسساً عقلية ومفاهيم فكرية مشتركة فيقرب بينها في التفكير وفي مذاهب الحياة ومواقفها وفي الكثير أو القليل من العادات والتقاليد الناشئة عن أحكام ذلك الدين وتصوراته ومفاهيمه ويوجد بنتيجة ذلك أهدافاً مشتركة في الحياة وشعوراً بالتآلف والتقارب والمودة ، تتقارب مقاييس الخير والشر والحب والبغض تقارباً قد يصل إلى التماثل والوحدة في الفكرة والشعور وقد يمكنها من التعاون في مجالات عديدة وضمن إطارات متنوعة.

(د) إن أخذ شعوب مختلفة في اصولها القومية بدين واحد ليس معناه زوال جنسيتها وأصولها القومية واندماجها اندماجاً كاملاً في مجتمع واحد لا أثر فيه للغاتها المختلفة وعاداتها الأصلية وخصائصها ، فان هذا أمر لم يحدث حتى الآن في التاريخ فان انتشار الاسلام بين العرب والترك والأفغان والايرانيين والهنود والملايويين والاندونسيين ليس معناه زوال صفة التركية عن التركي والهندية عن الهندي مع أن بعض هذه الشعوب اشتركت واجتمعت في دولة واحدة وفي نظام سياسي واحد حقبة من التاريخ كالعرب والفرس والأفغان وكالعرب والأتراك في فترة أخرى ، وإنما معناه تعاون هذه الشعوب على اختلاف

خصائصها القومية من لغة وعادات وطبائع وصفات في أهداف الحياة وغاياتها في المجال السياسي أو العلمي أو الاقتصادي أو في ذلك كله أي في المجال الحضاري . إنها يمكن أن تكون وحدة حضارية سواء أكانت في ظل حكم سياسي واحد أو متعدد .

(هـ) بل اننا نستطيع أن نقول إن الدين العالمي بل كل عقيدة عامة — مع وحدة العقائد والمبادىء الأساسية — يأخذ في كل شعب لوناً خاصاً ويتفاعل مع كل قومية تفاعلاً تظهر فيه خصائص تلك القومية وفعالياتها وطبائعها ، بل قد تظهر بعض نواحي عقليتها القديمة وعقائدها السالفة وعاداتها الماضية في الدين الجديد الذي تأخذ به . وقد يبلغ الأمر أن تصبغ الدين الجديد بصبغتها الخاصة ، وتعكس عليه بعض ألوانها وصفاتها . فلا شك أن الاسلام واحد في عقائده وأحكامه ولكنه يأخذ عملياً ألواناً وأشكالاً مختلفة في اندونسيا والهند والملايو وتركيا ، وهذه الأشكال لا تضر ولا تؤثر في جوهر الدين ووحدته إذا كانت تتعلق بالمظاهر والتفصيلات ، ولكنها تؤثر حين تمس المبادىء والأصول والاتجاهات الأساسية . وان نظرة فيما آل اليه الاسلام عند عوام الشعب في إيران والمقارنة بين أشكاله

القريبة من الوثنية وعبادة البشر والقبور فيها وبين صفاء التوحيد الذي هو عليه في جزيرة العرب تكفي لبيان أثر خصائص الشعوب في الدين . وإن كثيراً من الانحرافات والتشويهات التي ظهرت في تاريخ الاسلام وما ظهر من فرق ابتعدت عن أصل الاسلام قليلاً أو كثيراً إنما نشأت في الغالب مما حملته بعض الشعوب معها حين دخلت الاسلام من عاداتها وعقائدها القديمة أو ما كان من رد فعل لها حين واجهت الدعوة الاسلامية . وإنا لنجد في البروتستانية كثيراً من خصائص الشعب الالماني والشعوب الاوربية المجاورة له حتى أصبح هذا المذهب يتلاءم مع الشعوب الجرمنية والسكسونية .

٣ — إن بعض الأمم ضعف فيها أثر الدين أو اقتصر على نواح محددة من حياتها ولكنها أحلت محله جزئياً أو كلياً عقائد أخرى فأصبحت هذه العقائد الجديدة هي العنصر الأساسي المشترك في تلك الامم . فالشعوب الاوربية كفرنسا وانكلترا والمانيا مثلاً لم يبق فيها الدين العامل الاساسي في تكوينها وترابطها الاجتماعي ، ولكنه لم يفقد أثره مطلقاً بل لا يزال له أثر في الفكر والشعور ، ولكن تشاركه عقائد فكرية جديدة في هذا المجال . والشعوب التي اتخذت

الشيوعية مذهباً استبدلت بالعقيدة الدينية عقيدة وضعية اجتماعية هي العقيدة الشيوعية بمفاهيمها ونظراتها . وعلى هذا تكون العقيدة في كل الاحوال جامعاً أساسياً ورابطاً موحداً بين ابناء الامة الواحدة وإن كانت هذه العقيدة هي في روسيا مثلاً المسيحية الارثوذكسية في طور من الأطوار والشيوعية في طور آخر . ولكننا نستطيع أن نؤكد أن أكثر الشعوب الأوربية والاميركية إن لم نقل كلها لا تزال المسيحية التي هي دين شعوبها تؤثر تأثيراً عميقاً في حياتها الاجتماعية والسياسية والفكرية .

٤ — ولكن العقائد والأديان ليست متساوية في تأثيرها في الشعوب وفي كونها عنصراً أساسياً في تكوينها وفي استمرار هذا التأثير وذلك بحسب كونها أولاً عامة شاملة مستغرقة لجميع نواحي الحياة وفعالياتها أو مقتصرة على بعض نواحيها . فاذا كان الدين عاماً شاملاً لنواحي الحياة كان أثره في تكوين الأمة أقوى شأنه في ذلك شأن العقائد الشاملة من هذه الناحية . واما إذا كان مقصوراً على شعائر العبادة وبعض المعتقدات الخاصة فان أثره يكون محدوداً .

ويختلف كذلك أثر الدين بحسب قدرته على الاستمرار والخلود وصلاحيته للحياة وقدرته على تقديم الحلول لما يجد من الظروف وثبات أسسه الفكرية واتجاهاته الاجتماعية أمام تطور الفكر والمجتمع .

ويختلف أثره من جهة أخرى بحسب قوة صلته وعمق تأثيره في أمة من الأمم وطول اقترانه بتاريخها سواء أكان ناشئاً في الأصل فيها أو في غيرها . ولذلك لا يمكن وضع قاعدة عامة في أثر الدين في تكوين القوميات والأمم لأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال التي ذكرناها .

ونختتم كلمتنا في عامل الدين بقولنا : إن الدين قد يكون عاملاً أساسياً في تكوين بعض الأمم وربط أبنائها بعضهم ببعض وقد يكون عاملاً مساعداً عند أمم أخرى وفي أحوال معينة . وأما بالنسبة للعرب فان الاسلام كان له أعظم الأثر في جميع نواحي حياتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية ، ولا يزال أثره كذلك قوياً في حاضرهم وهو بالنسبة اليهم ليس ديناً فحسب بالمعنى الضيق لهذه الكلمة أي عقيدة وعبادة بل هو كذلك نظام اجتماعي وثقافة وتاريخ وحضارة ونظرة إلى الوجود وقيم ومثل عليا .

الاسلام والامة العربية :

نستطيع في ضوء هذه المعلومات والمسلمات التي قدمناها أن نعرف العلاقة بين (الاسلام) و (الامة العربية) وإلى أي حد يمكن أن نعتبره عنصراً أساسياً وعاملاً مكوناً لها ورابطاً بين أبنائها في الماضي وفي الحاضر . ولنستبين هذه العلاقة نقدم الافكار والملاحظات التالية:

(أ) إن صلة الاسلام بالعرب تاريخياً صلة لاتنفصم . ذلك أن الاسلام هو الذي جمع العرب لاول مرة في تاريخهم في اطار اجتماعي وسياسي واحد . ولم يسبق لهم أن اجتمعوا في ظل فكرة وعقيدة واحدة ونظام واحد قبل ذلك ولا تحت حكم وأحد .وهو كذلك قد حملهم رسالة إنسانية رائعة مفتوحة الآفاق إلى العالم أجمع وبعثهم على تأسيس حضارة لم يسبق لهم ولا لغيرهم تأسيس مثلها .

(ب) لقد أصبح الاسلام بالنسبة إلى العرب منبع حضارتهم وقوام تفكيرهم ومصدر ثقافتهم الاساسية وموجه حضارتهم والمخطط لها ،

وغدا تاريخه هو تاريخهم فكان بين أمة العرب والاسلام ديناً ورسالة ونظاماً اقتران مستمر على الزمن وتلازم لايقبل الانفكاك وأصبح كل انتقاص أو طعن في الاسلام أو عداوة له هجوماً عليهم وتحطيماً لكيانهم وإشهار عداوة عليهم كذلك .

(ج) وعلى أساس الاسلام بني كيان المجتمع العربي في الاسرة وسائر ميادين الحياة الاجتماعية وفي بنية التفكير ومجالات العاطفة ، كما بنيت على أساسه كذلك صلاتهم الخارجية فانعقدت بينهم وبين الشعوب التي دانت بالاسلام صلات فكرية ثقافية عاطفية لا تنفصم ، وهي صلات تخدم الانسانية والتقارب الانساني بوجه عام .

(د) لا يشابه الاسلام في موقعه هذا من حياة العرب أي دين آخر أو عقيدة أخرى قديمة أو حديثة فلا سبيل إلى المقارنة في ذلك بينه وبين غيره من الاديان والعقائد لان ذلك هو واقع العرب وحقيقتهم في ماضيهم وحاضرهم ، ومن الخيانة للحقيقة والتاريخ وللعرب والافتئات عليهم تشويه هذه الحقيقة المتعلقة بكيانهم لاعتبارات

عارضة أو أهواء خاصة أو تقليداً لأمم أُخرى تختلف أوضاعها عن أوضاع الأمة العربية .

(هـ) إن العرب في العصر الحاضر يدين ٩٥ ٪ منهم على الأقل بالاسلام فلا يجوز تجريد هذه الجماهير من انتمائهم إلى الاسلام المتصل بحياتهم كل الاتصال فان ذلك اعتداء صريح على حق الأمة العربية في الحفاظ على مقوماتها الأساسية وكيانها وذلك حق طبيعي يقره الواقع وجميع الأعراف الحقوقية . والاسلام ليس عنصراً تاريخياً بالنسبة إلى العرب بل هو عنصر متصل اتصالاً مستمراً عميقاً في حياتهم الحاضرة ونظرتهم إلى الحياة ومفاهيم عقائدهم ومثلهم العليا وأخلاقهم وعاداتهم بل هو المنبع الأساسي الذي أمد ثوراتهم المستمرة أمام الغزو الاستعماري والحاجز المنيع دون ذوبانهم في بوتقة الشرق أو الغرب في مذاهب هؤلاء وأولئك، بل هو الرصيد الذي يدخرونه لانقاذ الانسانية والحضارة مما تتردى اليه .

يقول الكاتب العربي المسيحي نبيه فارس وزميله محمد توفيق حسين في كتابهما (هذا العالم العربي) ص ٤٧ :

(وما يشاهد اليوم في الاقطار العربية من تشابه في نظام الأسرة

وفي عقلية الناس وفي سلوكهم أفراداً وجماعات يرجع إلى حد بعيد إلى انضوائهم تحت لواء الاسلام وعيشهم في ظل ما أنتج من نظم اجتماعية وسياسية وعقلية . . . . . وهو يمتد إلى أبعد من ذلك . فهو يوحد العرب المسلمين عاطفياً ويربطهم بوحدة المثل العليا . لقد كان الاسلام وما زال في قلوب الكثيرين من العرب اليوم يقوم مقام القومية . وكانت عاطفة الاخوة الاسلامية تقوم مقام عاطفة القومية . والحق أن جماهير الشعب العربي في أي قطر عربي تنظر إلى شعوب الأقطار العربية الأخرى كاخوان لهم يوحدهم الاسلام أولاً والعروبة ثانياً ، وان عاطفة الاخوة الدينية هذه هي التي ألفت بين الاقليات القومية المسلمة كالاكراد والبربر والزنوج وبين العرب . وبهذا نستطيع أن نفسر محاولات الانكليز لمنع تسرب الاسلام إلى القبائل الوثنية الساكنة في السودان ودأب الفرنسيين على إضعاف الدين الاسلامي واللغة العربية في المغرب الاقصى وبين قبائل البربر خاصة لتوهين الوحدة الروحية التي تربطهم بالعرب) .

وقال الدكتور جميل صليبا في بحثه عن : (الطابع الإنساني للقومية العربية) الذي استعرض فيه العوامل التي كونت القومية العربية :

(وأما الدين الاسلامي الذي نظم العرب ووحد شملهم وألف بين قلوبهم ومكّن لهم في الارض فغرضه ترقية الإنسان مادياً ومعنوياً وقد أجمع المؤرخون على اعتبار الرسالة الاسلامية رسالة إنسانية لما فيها من الحض على تحرير النفس والعقل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالمسؤولية الفردية والايمان بالمساواة والشورى والتضامن..... إلى أن يقول : ومتى أدرك الانسان ما في الدين الاسلامي من قيم إنسانية رفيعة أحب الأمة التي حملت رسالته ونشرتها في شعوب الأرض قاطبة بالتسامح والعدل والرحمة والحب والايمان . وعندي أن القيم الانسانية التي انطوى عليها الدين الاسلامي هي القومية العربية بعينها فمن لم يؤمن بهذه القيم لم يكن عربياً حقيقياً) .

وقال الدكتور منيف الرزاز في كتابه (معالم الحياة العربية الجديدة) الطبعة الثالثة ص ٢٦٩ في بحثه عن (أركان القومية العربية) بعد ان ذكر وحدة الارض واللغة والتاريخ :

(أما الركن الرابع من أركان القومية العربية فهو الدين الاسلامي . . . . . إلا أن الذي لا شك فيه أن الاسلام قد صبغ حياتنا العقلية التي رافقتنا أكثر من ثلاثة عشر قرناً وصبغ تفكيرنا وتقاليدنا

وعاداتنا وأساطيرنا ومعتقداتنا وحياتنا اليومية المعيشية. وان المسيحيين العرب الذين عاشوا في هـذه البلاد قد تأثروا بهذه إلى حد كبير على رغم اختلاف الدين . فالاسلام في هذه البلاد لم يكن مجرد دين فحسب بل كان تاريخاً وحضارة وحياة عقلية . فالمعول هنا ليس على نسبة المسلمين إلى المسيحيين من ناحية العدد وإنما المعول على ما أحدث الاسلام من أثر في حياة سكان هذا الوطن أدى إلى توحيدهم جميعاً مسلمين ومسيحيين في اطار فكري ومعيشي واحد) .

(و) وان وجود أقلية عربية تدين بالمسيحية لا تثلم هذه الوحدة ولا تغير من الحقيقة التاريخية التي تجعل من الاسلام عاملاً أساسياً في تكوين الأمة العربية الفكري والاجتماعي والنفسي ، وفي الربط بين أبنائها في الحاضر والماضي وذلك لسببين : أولهما أن من حسن الحظ أن بين الاسلام والنصرانية صعيداً مشتركاً فكلاهما في أصله دين سماوي يبنى على الايمان بالله ومسؤولية الانسان أمامه وبحياة آخرة وراء هذه الحياة يكون فيها الجزاء والحساب وبالنبوات والوحي وبالقيم الروحية والمبادىء الخلقية التي جاءت بها الأديان السماوية وكلاهما يعظم المسيح عليه السلام ويقدسه على اختلاف في طريقة هذا التعظيم، وكلاهما

يعظم أُمه تعظيماً كبيراً وكلا الدينين عاشا في اطار واحد من التسامح والأمن والسلام . والسبب الثاني هو أن المسيحيين من الوجهة القومية عاشوا في أجواء الفكر الاسلامي والثقافة والحضارة الاسلامية وتأثروا بذلك تأثراً كبيراً .

ويمكن أن نضيف إلى هذين السببين سبباً ثالثاً مهماً وهو أن الوعي العربي العام جعل المسيحيين العرب يشعرون كما يشعر المسلمون أن الاسلام تراثهم القومي ومنبع ثقافتهم القومية وحضارة أُمتهم وانطلقت ألسنة الكثيرين من المفكرين والكتاب المسيحيين في التعبير عن هذا المعنى والاتجاه في هذا المنحى .

(ز) لا منافاة ولا تعارض بين حقيقتين واقعيتين إحداهما وجود مجتمع عربي يجمع بينه اللغة والجنس ويتصل بالاسلام صلة وثيقة عميقة وتدين غالبيته به وفيه أقلية تدين بغير الاسلام ولكنها ترى في الثقافة العربية والاسلام عنصرها الأساسي — وفي التاريخ العربي — والاسلام عصبه المحرك — وفي الحضارة العربية — والاسلام روحها وأساس مفاهيمها — ثقافة لها وتاريخاً وحضارة من الوجهة القومية . والحقيقة الثانية وجود دائرة أوسع من الدائرة العربية وتشتمل على شعوب

كثيرة تدين بالاسلام وترتبط به عقيدة وروحاً وحضارة وتتصل بالمجتمع العربي اتصالاً وثيقاً بسبب الاسلام وترتبط بغالبيته برابطة العقيدة وأخوة الدين كما ترتبط بالمجتمع العربي كله برابطة الثقافة العربية والحضارة الاسلامية . وأما الاطار السياسي الذي يعيش فيه الشعب العربي والشعوب الاسلامية الأخرى فموضوع آخر ، فقد يعيش كل واحد من هذه الشعوب في كيان سياسي مستقل وقد تعيش شعوب متعددة تدين بالاسلام في كيان سياسي واحد في بعض العصور .

فالرابطة التي تربط بين العرب المسلمين رابطة قومية ودينية في آن واحد والرابطة التي تربط بين العرب من مسلمين ومسيحيين رابطة قومية ويدخل الاسلام في كل من الحالتين وفي كلا الرابطتين من وجهين مختلفين . والرابطة بين العرب في أكثريتهم المسلمة وأبناء الشعوب الاسلامية رابطة دينية وحضارية .

ولا مجال لوضع هاتين الرابطتين الدينية والقومية في موقف التعارض لأن علاقتهما الطبيعية التعاون والتآزر دون أن يكون في ذلك اضرار أو إيذاء لمن ينفردون بالرابطة القومية دون الدينية من أبناء العرب .

٧ — وحدة المصالح الاقتصادية :

يزعم بعضهم أن تشابه المصالح الاقتصادية بين أفراد المجتمع هو الذي يجعل منه وحدة قومية ويكون منه أمة واحدة ولذلك كانت رابطة المصلحة الاقتصادية المشتركة في زعمهم إحدى الروابط الأساسية التي تربط بين أفراد الأمة .

لا شك أن المعيشة المشتركة في أرض واحدة مدة طويلة من الزمن تؤدي إلى تشابك المنافع والتشارك في المصالح والتعاون في الحياة الاقتصادية ولكن الحياة المشتركة هي التي أدت إلى هذه النتيجة وهي سابقة لها ومتقدمة عليها . ومن الأمور المعروفة المشاهدة أن الناس لا يستبدلون بقومياتهم قومية أخرى ولا ينسحبون من أمتهم لينتموا إلى أمة أخرى لمصلحة اقتصادية . والأمم التي جاهدت للتحرر من الاستعمار ما كانت لترضى البقاء في حالة الاستعمار ولا الاندماج ولو كان على أساس المساواة التامة مع أمة أخرى لمجرد وجود مصلحة اقتصادية لها في ذلك .

ولو أن الأمور كانت تجري وفق المصالح والمنافع بالنسبة إلى كل بقعة من الأرض لتغير المصور الجغرافي للعالم ولالتحقت كثير من

المناطق بغير البلاد التي هي اليوم جزء منها والتي لا ترضى عن بقائها معها بديلاً ذلك أن الصلة بين أجزاء كل بلد وأفراد كل أمة هي بالدرجة الأولى رغبة نفسية وصلة معنوية ناشئة عن التشابه والتقارب أو التماثل والاشتراك في العقلية والعادات والثقافة واللغة والمعتقدات والمفاهيم.

ولكن مما لاشك فيه أن مما يكمل وحدة كل أمة من الأمم ومما يقوي روابطها التعاون الاقتصادي والاشتراك في المصالح ولذلك تسعى الدول الحديثة لتنسيق المصالح الاقتصادية وتأمين الخدمات والمنافع لرعاياها . ذلك أن تنافر المصالح الاقتصادية بين الأفراد أو المناطق أو الطبقات في الأمة الواحدة باحتكارها لجهة دون جهة وحرمان غيرها يؤدي إلى تصدع الوحدة وإضعافها بما يحدثه في نفوس فريق من أبناء الأمة من النقمة والقلق والنفور .

٨ — الوحدة السياسية أو الدولة :

إن الوحدة السياسية وقيام دولة لها أرضها وشعبها وحكومتها هو النتيجة الطبيعية للتآلف والتضامن في الأمة التي وحدتها الأهداف والغايات والآراء والمعتقدات والثقافة واللغة والتاريخ والآمال وليست — كما يمكن أن يظن — السبب في تكوين الأمة.

فالوحدة الحاصلة في مجتمع قومي أو في أمة من الأمم تكون موجودة وقائمة مهما يكن وضعها السياسي قبل نشوء الدولة وبعدها وفي حال إلحاقها بدولة أخرى أو تحررها واستقلالها ذلك أنها كما قلنا سابقاً ناشئة عن عوامل كثيرة أهمها الثقافة والمعتقدات واللغة والتاريخ والاشتراك في أسس الحياة الأصلية المادية والمعنوية . ولكن لاينكر أثر قيام الدولة في كل أمة فهي التي تصون وحدتها وتقويها وتدافع عن كيانها المادي والمعنوي وتحمي تراثها وثقافتها وعقيدتها وتفسح لها المجال لتزكية مواهبها وتنمية خصائصها وتفتق عبقرياتها فليست وحدة العرب وقوة تضامنهم وترابطهم بعد ظهور الاسلام وقيام الدولة الجامعة لهم مثلها قبل نشوئها فهي التي صانت لغتهم وحمت عقيدتهم ووسعت آفاق ثقافتهم ومكنت لهم في الارض .

إن الكيان السياسي — وإن لم يكن عاملاً في إيجاد الامة وعنصراً من عناصر تكوينها الاساسي — متمم لوجودها وضروري لبقائها واستمرارها ولحمايتها والدفاع عنها وتمكينها من تقديم ما عندها من خير لنفسها وللانسانية .

الفهرس

الصفحة	
آ	تمهيد
١	المقدمة
٤	العالم ينقسم إلى شعوب
٧	المجتمع العربي
١٤	المجتمع العربي والعالم الإسلامي
٢٠	العوالم الاخرى
٢٨	الامة والقومية
٤٢	عوامل تكوين الامة
٤٣	١ — الارض
٤٦	٢ — الجنس والاصل
٥١	٣ — اللغة

الصفحة

٥٧ ٤ — الثقافة

٦٣ ٥ — التاريخ

٧٤ ٦ — الدين والمعتقدات والافكار

الإسلام والامة العربية

٩٢ ٧ — وحدة المصالح الاقتصادية

٩٣ ٨ — الوحدة السياسية أو الدولة

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 079639793